# صور جديدة من الأدب العربي

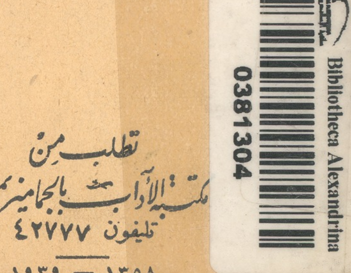
بقلم

## كامل كيلاني

من المقدمة

أثارت قراءة هذا الكتاب فى نفسى هذه الخواطر، وخواطر أخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح بإثباتها، وأحب الكتب إلى — ما يثير فى نفسى الخواطر، وينشطنى للتفكير . . . . .
إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما أراد، وبما هو أهل لأن يظفر به.

طه حسين



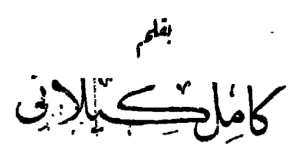


تطلب من
مكتبة الآداب بالجماميز بمصر
تليفون ٤٢٧٧٧

الثمن ٨

١٣٥٨ — ١٩٣٩

# صور جديدة من الأدب العربي




من المقدمة

أثارت قراءة هذا الكتاب
فى نفسى هذه الخواطر ، وخواطر
أخرى لا أجد — من الوقت —
ما يسمح باثباتها ، وأحب الكتب
لى — ما يثير فى نفسى الخواطر ،
وينشطنى للتفكير . . . . .
إذن يكون كامل قد ظفر — من
التوفيق — بما أراد ، وبما هو
أهل لان يظفر به .

طه حسين


تطلب من
مكتبة الآداب بالجماميز بمصر
تليفون ٤٢٧٧٧

الثمن ٨ ص

١٣٥٨ — ١٩٣٩

# فهرست

## (٢) مناظرة الكسائى وسيبويه



## (٣) فى مجلس سيف الدولة

## (٤) فى مدينة الاسلام



## (٥) بين المعرى وداعى الرعاة

(٦) ابن الرومى

# استدراك

سقطت جملة فى آخر « ص ١٢٨ » فاضطرب المعنى .

ونحن نثبتها ليستدركها القارىء فى القطعة التالية :

« قال الحاتمى للمتنبي : أما كان فى أفانين الهجاء التى تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الذى ينفر منه كل سمع ، ويمجه كل طبع ؟

وليت المتنبي قال له :

بل هذا كلام يرتاح إليه كل سمع ويأنس به كل طبع ما دام يأبى الحاتمي إلا أن يتخذ من سمعه مقياساً لكل سمع ، ويجعل من طبعه نموذجا لكل طبع . »

وفى « ص ٢٢٠ » كلمة « المرحومان » وصوابها : « المرحومين »

وفى « ص ٢٢١ » كلمة الرومى ، وصوابها : ابن الرومى

# مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلانى فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسى، وفى مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس، هو ما يسميه الناس «مناظرة» بين هؤلاء العلماء والأدباء.

جميلة خصبة هذه الفكرة.

لأنها تعرض على جمهرة المستنيرين ألواناً من الحياة العقلية العربية، ما كانوا ليلتفتوا إليها أو يفكروا فيها، لأنها مطوية عنهم فى ثنايا الكتب وبطون الأسفار.

وهى — على ذلك — زاهية جميلة قيمة، فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للأخلاق، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين فى عصر من أجمل عصورهم وأزهاها، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرآة الناصعة الصقيلة — مرآة التاريخ — التى تبين للمعاصرين

أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم فى أنحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير ، ويتصل بعضها بالخلق ، ويتصل بعضها بطريقة الملاءمة بين التفكير والخلق .

***

فالذين يقرءون ما عرضه صديقنا كامل كيلانى من مظاهر الخصومة — بين الهمذانى والخوارزمى ، وبين الكسائى وسيبويه ، وبين المتنبى وأبى فراس وابن خالويه والحاتمى ، وبين أبى العلاء وداعى الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدهم يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويظلم بعضهم بعضا ، ثم ينتصف التاريخ للمظلوم من الظالم ، ويثأر للبرىء ممن اعتدى عليه ، ولكنهم يرون أنفسهم فى حياتهم هذه التى يحيونها ، والتى يأتمر فيها بعضهم ببعض ، ويجنى فيها بعضهم على بعض ، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والأسباب — ما كان يتخذه القدماء ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء ، ثم يظهرونه على نحو ما كان يظهره القدماء .

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همذانى يكيد للخوارزمى ويحكم الكيد ، وناس يخدعهم تملق المتملقين ولباقة اللبقين .

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — كسائى يستظهر على سيبويه بجاه أولى السلطان والبأس ، ويعنة عليه بالمأجورين والمسترزقين .

وما زال فينا ـ والحمد لله على الخير والشر ـ قوم يتساقطون على قصور الملوك والأمراء كما يتساقط الذباب ، فيكيدون فيها للعلماء والأدباء والساسة وأهل الرأى ، ويبلغون — من ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه .

ثم ما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم زعموا أنهم يدعون إلى الخير ، ويصدون عن الشر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم — مع ذلك — يلقون الشباك ، ويمدون الأشراك ، يصيدون بها المفكرين والباحثين كيداً لهم ، ونكاية بهم . وعدواناً عليهم .

* * *

كل أولئك أحياء بيننا ، نراهم — كل يوم — ويشقى بهم كرام الناس — فى كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم الماقتون .

ولكننا نراهم — فى صورتهم الصحيحة المرذولة — حين

نقرأ كتاب كامل كيلانى ، لأنا نراهم — على بعد الزمن وانقطاع الأسباب — وقد ذهبت الأحقاد ، وماتت الضغائن فيهم .

فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة التى يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم — صلات المنافع والمضار ، فكان — بيننا وبينهم — التعاون والتنافس .

نعم، ونحن نرى — فى كتاب كامل كيلانى — ما لا نستطيع أن نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء أن يروه ، وسيراه أبناؤنا من بعدنا ، وهو حكم التاريخ للمحسن ، وقضاؤه على المسىء .

***

قدَّمتُ — منذ أعوام — إلى الناس — طبعة كامل كيلانى لرسالة الغفران ، بعد أن يَسَّرها وقربها إلى المستنيرين الذين يريدون أن يتادبوا دون أن يقفوا أنفسهم على العلم الخالص العسير .

وكنت سعيدا شديد الاغتباط ، لأنى رأيت هذه العناية

— بأوساط المثقفين — تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها ، فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط الفاتر .

وقد راجت رسالة الغفران هذه — فى مصر والشرق العربى — بل رأيت من المستشرقين — فى أوروبا — من يرضى عنها — ويعجب بها ، لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعى لنفسه أكثر من أنه يبذل — جهداً صادقاً — لتقريب العلم إلى الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم .

وعلى هذا النحو ، يسرنى أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القصير القيم الخصب الممتع فى وقت واحد .

***

كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يصطنع خصلتين لا بد منهما .

الأولى : أن يكون سهلا سمحاً ، ويسيراً قريباً ، لا يكلف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يحبب إليه المراجعة .

الثانية : أن يحرص على الانصاف ، ويأخذ به نفسه أخذاً شديداً ، فلا يظلم العلماء والأدباء ، ولا يظلم القراء المحدثين ، فيفسد آراءهم فى العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، لأن لهم علينا حق الأمانة والصدق .

وإنى لسعيد بأن أهدى — إلى كامل — أصدق التهنئة ، لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق . فلقد قرأت كتابه — حين كان ينشر فصولا فى المقتطف — ثم قرأته أمس ، فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتممته ، لم ينلنى سأم ولا ملل ولا فتور ، لأن ما فى الكتاب — من الحياة والحركة وخفة الروح — خليق أن يستبقى نشاطك موفوراً ، منذ تبدأ الكتاب إلى أن تتمه .

أما الخصلة الثانية ، فقد تعودت مع أصدقائى جميعا — ومع كامل خاصة — أن أكون صريحا شديد الصراحة ، ولست أشك فى أن الانصاف ظاهر فى الكتاب ، يحسه القراء مهما تختلف طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم ، ولكنّ فى الكتاب شيئا — لا أدرى ما هو — يشعرنا بأنّ شخصية المؤلف لم تستطع أن تستتر كل الاستتار ، بل أظهرت كثيراً من عواطفها وميولها ، وكأنها تريد — ولو فى

استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول .

***

أظنني عرفت هذا الشيء ، فني كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف ، فهو — إذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده ، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره . وفيه كرم يتجاوز به الانصاف إلى الاسراف في الانصاف ، فهو لا يكتفي بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالالحاح عليه وتشديد النكير .

وما أرى أن الكسائي يستحق منه هذه الشدة المسرفة في القسوة ، فكان الكسائي — من الرواية والقراءة والنحو — يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله .

ومهما يجمع المجمعون على أن القول ما قال سيبويه ، فاني أحب ألا ننسى أن مذهب سيبويه وأصحابه — في النحو — كان مذهب قياس وتعليل . وأن مذهب الكسائي وأصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب ، وأن لكل من المذهبين خطره وقيمته .

كذلك كنت أحب أن يرفق كامل بالحاتمي — كما رفق بابن خالويه — فكلاهما أسرف على المتنبي ، ولكنّ كاملا

ابتسم للنحوى وسخر من الأديب ، ومع ذلك فهذا الأديب خليق أن نبتسم له ، لأنه صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة — نوعاً من حياة الأدباء فى القرن الرابع ، يستحق أن نقف عنده ونفكر فيه .

***

أثارت قراءة هـــذا الكتاب في نفسى هذه الخواطر ، وخواطرَ أخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح باثباتها ، وأحب الكتب — إلىّ — ما يثير فى نفسى الخواطر ، وينشطني للتفكير .

فليكن موقع هذا الكتاب — من نفوس القراء جميعا — كموقعه من نفسى .

إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما أراد ، وبما هو أهل لأن يظفر به .

طه حسين

— ١ —

# مناظرة الهَمَذانيّ والخُوَارَزْميّ

« متى أرت الدنيا نباهة خامل

فلا ترتقب إلا خمول نبيه »

« البحترى »

# مناظرة الهَمذانى والخُوارَزْمى (١)

« وأعان الهمذانى عليه قوم من الوجوه — كانوا
مستوحشين منه جداً — فلاقى ما لم يكن فى حسابه »
« الثعالبى »

## ( ١ ) خطر المناظرة

أما أثر هذه المناظرة فى الهمذانى (٢) فقد أوجزه الثعالبي فى قوله :

« فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وتعرض للتحكك به وغلّب هذا قوم وذاك آخرون ، طار ذكر الهمذاني فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الاقبال على أموره ، ودرت له أخلاف الرزق ، وأجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للهمذاني . »

---

( ١ ) نشرت بمقتطف يوليو سنة ١٩٢٩

( ٢ ) بديع الزمان الهمذانى

٣٥٨ — ٣٩٨ هـ

اسمه « احمد بن الحسن » وكنيته « أبو الفضل » نشأ بهمذان ثم سار فى الأرض متكسباً بادبه وأقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة نسج الحريرى على منوالها — فيما بعد — كما أشار فى مقدمته مثبتاً فضل الهمذانى عليه فى السبق .

قالوا : « ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سببا فى هبوب ريحه وبعد صيته ، اذ

وأما أثرها فى الْخُوَارَزْمى(١) فكان كما يقول الثعالبي نفسه :—

« أنف من تلك الحال ، وانخذل انخذالا شديداً ، وكسف باله وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره ونفذ قضاء الله فيه ! »

## (٢) مبايعة قهرية

والحق أن هذه المناظرة كانت أشبه بمبايعة قهرية من

---

لم يكن فى الحسبان ان احداً يجترىء على الخوارزمى . وبعد المناظرة بقليل انفرد الهمذانى بالشهرة الواسعة وذاع صيته عند الملوك والأمراء ، فجال فى حواضرهم ، ثم استوطن ( هراة ) وصاهر احد اعيانها العلماء . فابتسمت له الدنيا ونال ما تطمح اليه نفسه من الثراء ومات فى الأربعين من عمره . وكان فى الخامسة والعشرين حين ناظر الخوارزمى .

( ١ ) الخوارزمى

٣٢٣ — ٣٨٣ ﻫ

اسمه « محمد بن العباس » وكنيته ( ابو بكر ) ولد ونشأ بخوارزم وكان ممن يجرى على طريقة ابن العميد فى الكتابة جاب الاقطار وسافر من الشام الى اقصى خراسان دائبا فى طلب العلم والأدب وكان كثير المحفوظ ، ومما يروونه عنه انه قصد الى الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه قل للصاحب ان بالباب اديبا يستاذن فى الدخول ، فقال الصاحب للحاجب : قل له قد الزمت نفسى الا يدخل على من الأدباء إلا من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب .

قالوا : فخرج اليه الحاجب واعلمه بذلك فقال له « ارجع اليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال ام شعر النساء . ؟ »

فدخل الحاجب واعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب هذا يكون ابا بكر الخوارزمى ، قالوا : فأذن له فى الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له وكان الخوارزمى فى الستين من عمره وقت المناظرة .

الخوارزمى للهمذانى ، فقد انتهت المعركة بمثل ما تنتهى اليه هزيمة الملوك ، وانتقل تاج الشهرة من رأس إلى رأس !

ولعل أصدق مثل ينطبق على ما حدث بين الهمذاني والخوارزمى هو مثل السُّلَحْفاة والأرنب المشهور ، حين تراهنا على السباق إلى غاية ، فتهاون الأرنب — اعتماداً على سرعته — وجدّت السلحفاة لتعوّض ما فات من قوتها .

فقد كان الخوارزمى حينئذ شيخاً قضى عمره بين حل وترحال ، ومضى على غُلَوائه فى الاضطراب والاغتراب — كما يقولون — وشَرَّق بعد أن غَرَّب وخبر الدهر وأهليه، وتعرض لكيد الرؤساء وغضب الزعماء ، فلما تصدى الهمذاني لمناظرته ـ وهو حينئذ فى سن الشباب ـ استخف به ولم يعد العدة لمناضلته،وكأنما كان يتمثل قول القائل :

« عذرت البُزْل إن هى غالبتني

فما بالى وبال ابْنَىْ لَبُونِ ! »

ولم يكن زهد الخوارزمى في مساجلته بأقل من ولوع الهمذانى بها وتحرقه اليها ، لأنه كان يرى فيها أكبر فرصة للظهور .

## (٣) مقدمات المناظرة

ألا ترى إلى الهمذانى يبدأ بالتجنى على الخوارزمي وتقريعه واتهامه بالجفاء والكبر[١] فيرد عليه الخوارزمى رداً كريماً يختمه باظهار خطإ الهمذانى فيما ذهب اليه من توهم الجفوة[٢] فلا يكون للهمذانى شاغل الا استثارة الخوارزمي وتنقصه وعيبه — فى كل ناد ومحفل[٣] — مرتقبا الفرص لمناضلته وقهره ، ليصل بذلك إلى الشهرة من أقرب طريق.

---

(١) ارجع الى « ص ١٥ » من رسائل الهمذانى

(٢) ارجع الى « ص ١٥ » من رسائل الهمذانى

(٣) انظر الى قول الهمذانى فى احدى رسائله — ينتقد الخوارزمى ويتهكم به على طريقته فى الزراية والانتقاص — لترى إلى اى حد وصل به هواه وتحامله :

« سألت — امتع الله بك — عن الخوارزمى وشعره ، وقلت : إنى لاجد فيه بيتا — لو رؤى فى المنام — لأوجب الغسل حسا ، وبعده بيتا — إذا سرد — ينقض الطهارة مسا . ولعمرى إن هذين البيتين لو كانا تينتين ما نبتتا فى ارض ، او تمرتين ما جنيتا من غصن ، فكذلك إذا كانا شعرين يبعد ان يصدرا — إن صدرا — عن صدر ، او يطبعا من طبع ، او يصبا على قالب قلب ، او يكونا نفسى نفس »

وهو فى هذا الاسلوب ينهج منهج القائل فى هجاء احد اقاربه :

« لو كنت ماء كنت غير عذب      أو كنت سيفا كنت غير عضب
او كنت طرفا كنت غير ندب      او كنت لحما كنت لحم كلب »

وهذا المعنى هو عكس قول القائل فى وصف حبيبته :

« فلو كنت ماء كنت من ماء مزنة      ولو كنت نوما كنت إغفاءة الفجر »

وانظر الى تحامل الهمذانى فى قوله :

« فقد يسمن الشاعر ثم يغث ، ويجيد القـــائل ثم يرث ، »

## (٤) تحرق الهمذاني الى لقائه

فإذا بدا له أمل فى الاجتماع به ، حرص الهمذاني على تعجل الفرصة وسعى جاهداً إلى تحقيقها ـ خشية أن تفلت من يده ـ كما ينم على ذلك قوله :

« واتفق أن السيد أبا عليّ نشط للجمع بيني وبينه ، فدعاني فأجبت ، ثم عرض عليّ حضور أبي بكر الخوارزمى فطلبت ذلك وقلت : « هذه عِدَةَ كنت أستنجزها وفرصة لا أزال أنتهزها » . .

فتجشم السيد أبو الحسين وكاتبه يستدعيه ، فاعتذر

---

ولكن لا كما تراه فى شعر ابى بكر .

وما كنت لاكشف تلك الاسرار واهتك تلك الاسرار ، وأظهر منه العار والعوار ، لولا مابلغنا عنه من اعتراض فيما أملينا ، وتجهيز قدح فيما روينا من مقامات الاسكندرى من قوله : « إننا لا نحسن سواها ، واننا نقف عند منتهاها »

ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، او عشر مفتريات ، ثم عرضها على الأسماع والضمائر واهداها الى الابصار والبصائر ، فان كانت تقبلها ولا تزجها ، او تأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح وعلى املائنا بالجرح .

او يقصر سعيه ويتداركه وهنه فيعلم ان من املى من مقامات الكدية اربعمائة مقامة ـ لا مناسبة بين المقامتين لا لفظا ولا معنى ـ وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه . والسلام »

فانت تراه لا يرى الخوارزمى جديراً بالزعامة إلا إذا انشأ مثل مقاماته ، وأن الاديب لا يكون اديبا فذا إلا إذا نحا هذا النحو من البيان .

أبو بكر فى التأخر فقلت : « لا ، ولا كرامة للدهر أن تقعد تحت حكمه أو تقبل خسف ظلمه ، ولا عزازة للعوائق أن تضيعنا ولا نضيعها وتعيينا ولا ندفعها » .

وكاتبته أنا أشحذ عزيمته على البدار ، وألوى رأيه عن الاعتذار ، وأعرفه ما فى ذلك من ظنون تشتبه ، وتهم تتجه »

وهنا يقول الهمذانى :

« وقدنا اليه مركوباً لنكون قد ألزمناه الحج وأعطيناه الراحلة ، فجاءنا فى طبقة أف ، وعدد تف[1]

كل بغيض قده اصبع وأنفه خمسة أشبار !..»

الخ

## (٥) كيف استثاره الهمذانى

ولم يكد يستقر به الجلوس حتى بدأ يستثيره الهمذانى ويتحرش به إلى أن زج به فى ميدان المساجلة وأنشده الهمذاني أبياتاً كلها تهكم به وزراية عليه وتنقص لأدبه .

---

(١) انظر الى تحامل الهمذانى على خصمه فانت تراه كيف يصف أصحاب خصمه ويسخر منهم ، فاذا ذكر من تملقهم فأيدوه على خصمه قال « وما منهم إلا أغر نجيب » الى آخر هذه العبارات المنمقة التى صاغها فى مدح كل من أيده وناصره.

وقد أجاز الخوارزمى بيتاً للمتنبى كما أجازه الهمذانى ، وعاب عليه الهمذانى ما فى نظمه من قافات مكروهة ، فلما بدأ الخوارزمى يعيب عليه قوله :

« يا أحمقا ! وكفاك ذلك خزية

جربت نار معرقى هل تحرق ! »

وينعى عليه صرف كلمة « أحمق » أمطره الهمذاني سيلا من السباب ، فقال :

وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه ، حتى ينصرف وتنصرف معه ! »

* * *

ومن العجيب أن الهمذانى يسبه ما شاء أن يسبه ، دون أن يقف فى سفاهته عند حد ومن غير أن يراعى فضل الرجل أو شيخوخته ثم لا يخجل أن يقول له بعد ذلك :

« ياهذا إن الأدب غير سوء الأدب ، وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة ، فإن نفضت عن هذا السخف يدك ، وثنيت عن هذا السفه قصدك ، وإلا تركت مكالمتك ... » الخ

## (٦) دعاية الهمذانى

فإذا انفض المجلس طفق الهمذانى يروّج فى كل مكان أنه انتصر على الخوارزمى أيما انتصار وخذله أيما خذلان ، ويرسل اليه — فى نفس الوقت — رسائل الشوق والمجاملة والتحرق الى اللقاء ، ويوفد اليه رسلا يصلحونه وإياه :

ولكن الخوارزمى يبعث اليه من يقول له :

« قد تواترت الأخبار وتظاهرت الآثار فى أنك قَهَرْتَ وأنى قُهِرْتُ ، ولا أشك فى أن هذا التواتر عنك صدرت أوائله ، والخبر اذا تواتر به النقل قبله العقل ، ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء نتناظر بمشهد الخاصة والعامة الخ .... »

واذن فقد بلغ الهمذانى إرْبَتَهُ ، واهتاج الخوارزمى فاندفع الى طلب المناظرة — بلا تدبر ولا روية — فبعث اليه الهمذانى بكلام ظاهره اعتذار وباطنه احتثاث على المناظرة واستنفار اليها .

## (٧) الساعة الحاسمة

ومرت الأيام ، ثم جاء اليوم المشهود ، وعقدت

المناظرة فى دار الشيخ أبي القاسم المستوفى الوزير ، بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم من سائر الناس .

وهنا يبكر الهمذاني فى الحضور ليتملق من حضر ويتودد إلى الشهود — بكل ما فى وسعه — ويدبر خطط الدفاع والهجوم تدبير الحاذق الذكي .

قال : « وكنت أول من حضر ، وانتظرت ملياً حضور من ينظر الخ »

فإذا رأى من بعض الحاضرين شيئاً من الانحراف عنه ، تقرب اليه متملقاً ، كما فعل مع الشريف السيد أبي الحسين — حين رأى منه جانب الاعراض — فقال له من كلام طويل :

« فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنّك على ترك الواجب . ثم إن لي فى أهل الرسول — صلى الله عليه وسلم — قصائد سارت فى البلاد وطارت فى الآفاق ، ولكني أتسوّق بها لديكم ، ولا أتنفّق بها عليكم ، وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا ! »

فقال للهمذانى :— « أنشدنى بعضها »

فأنشده الهمذاني شيئاً مما قاله . فماذا حدث ؟

نترك للهمذانى نفسه روايته ، فهو يقول :

« فلما أنشدت ما أنشدت انحلت له العقدة ، وصار سلماً ، يوسعنا حلماً الخ »

وبذلك أصبح الشريف من أنصار الهمذاني ومؤيديه.

## (٨) كيف انهزم الخوارزمى

وجاء الخوارزمي - بعد أن تكامل العدد وتمت المؤامرة - فقوبل بفتور .

ولم يكد يجلس فى مكانه الجدير به حتى طلب اليه الهمذانى أن يتخلى عنه الى غيره، ووافقه الحاضرون على لباقته وحذلقته (١) .

---

(١) ولم يشأ الهمذانى ان يراعى الفرق بينه وبين مناظره فى السن ، وإنا نترك للهمذانى نفسه رواية ما حدث ، قال :

ومشى الى فوق اعناق الناس ، وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر ، وقد اخذ المجلس اهله فقلت :

« يا ابا بكر تزحزح عن الصدر قليلا الى مقابلة اخيك »

فقال : « لست رب الدار فتأمر على الزوار »

فقلت : « يا عافاك الله ، حضرت لتناظرنى ، والمناظرة اشتقت من النظير ، فان كان اشتقاقها من النظر ، فمن حسن النظر ان يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول ، ثم يتطاول السابق ويتقاصر المسبوق »

ولقد أخطأ الخوارزمى أشنع الخطأ حين رضى بالبقاء والمناظرة فى مجلس مشبع بروح الخصومة واللدد .

وليته اتبع قول ابن المقفع فى وصف صديق حازم :
« وكان لا يُدلى بحجته حتى يَجد قاضياً فهماً وشهوداً عدلا »

إذن لأمن عواقب هذا الاندفاع والتسرع . ولكن :

«ألا ياقوم للعجب العجيب     وللغفلات تعرض للأريب»

* * *

ولكن كيف انهزم الخوارزمى فى المناظرة ؟

ليس لدينا غير مصدر واحد نعتمد عليه فى ذلك هو رواية الهمذانى نفسه ، وهى رواية خصم عن خصمه لا تقابل بغير الحذر والانتباه . وقد تعمد الهمذانى — بلا شك — أن يسجل فيها انتصاره مضاعفاً ، بأسلوب جديد من أقوى أساليب الدعاية ، ولو كان لدينا مصدر آخر

---

قال الهمذانى : « فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وانحط عن تلك العظمة »

وقد كان هذا أول انتصار للهمذانى على خصمه ، وقد عرف كيف يعكر عليه صفاء ذهنه ويربكه قبل ان يتصدى لمناظرته.

لتكشفت لنا جوانب كثيرة تعمد الهمذانى ـ بلا شك ـ أن يُخفيَها عنا ، ليزعم لنفسه الفوز كاملا والانتصار حاسما

## (٩) كيف سجلت الهزيمة

على أننا نلمح فى كلام الهمذاني نفسه ، أنه قد انتصر على الخوارزمى انتصاراً ، الهزيمة خير منه .

وقد ذكرنا للقارئ طرفاً من تلك الأساليب العجيبة التي سلكها الهمذاني للتغلب على خصمه الخوارزمي الأديب الكبير وابن أخت « الطبرى » المؤرخ الكبير.

وهى أساليب نعدها دروساً قاسية فى التهافت المستنكر على الشهرة وعواقبه .

فقد رأيت أنه لم يدع وسيلة من وسائل التهويش وتملق الحاضرين وإرضائهم إلا أتاها .

فلما انتهت المناظرة وأراد تسجيل ماحدث فيها ـ كما شاء له الهوى ـ طفق يكيل المدح كيلا لكل من له خطر من الحاضرين حتى يأمن أن يكذبوه فى شيء مما رواه . وطفق الهمذانى وأنصاره وخصوم الخوارزمى يذيعون فى كل مكان أن الخوارزمى قد انهزم شر انهزام .

## (١٠) حقيقة الهزيمة

ولكن هل كانت الهزيمة حاسمة !

ذلك ما نرتاب فيه رغم ما يؤكده لنا الهمذانى ، ويصوره لنا فى روايته التى ليس لدينا مصدر سواها . ونحن نعتقد أن الهزيمة — إن كانت ثمة هزيمة — لم تكن وسائلها شريفة ، وليست تنقص من فضل « الخوارزمى » فقد كانت كل كلمة يقولها « الهمذانى » تقابل بالاستحسان ويعرب الحاضرون عن رضاهم عنها بالقول والاشارة وانبساط الأسارير[1] . وقد أحسن «الخوارزمى» فى وصف خصمه بالشعبذة فلم يعن أحد بقوله . مع أنه وصف صادق لأدب الهمذانى ـ فى ذلك الحين ـ فقد طلب من مناظره مثلا : أن يكتب كتاباً « خالياً من الحروف العواطل » وآخر « أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها جيم » الى آخر

---

(١) ومما يدل على ذلك مايرويه لنا الهمذانى فى رسالته إذ يقول :

وتقول الجماعة : « قد علمنا اى الرجلين اشعر واى الخصمين اقدر ، واى البديهتين اسرع ، واى الروايتين اصنع »

فيحسبهم الخوارزمى يهنئونه بانتصاره فيقول « فاسقونى على الظفر »

فيقولون له متهكمين : « كفاك ما سقاك »

هذه الأمور التي لا نرى فى وصفها أصدق من كلمة الشعبذة !

***

لقد كان الخوارزمى فى سن الشيخوخة ، وقد أحرز أقصى ما يتطلع اليه من شهرة ومجد ووصل إلى أرقى منزلة تتسامى اليها نفس أديب ، وهي منزلة الزعامة ، وهو حينئذ قد اجتاز مرحلة الجدال والمهاترة والمباهاة بالحفظ إلى آخر هذه الأشياء التى يكثر منها الأديب الناشىء الطامح الى الشهرة وأصبح يأنف بطبعه من ذلك ، ولو جاوله — وقد فعل — لأخفق كل الاخفاق .

ومثل لنفسك شاباً ذكياً يواصل ليله بنهاره فى الدرس والتحصيل وتطمح نفسه الى عظائم الأمور ، يأتى الى زعيم من زعماء الأدب فى عصره فيناقشه فى تلك القواعد الأوّلية التى تركها منذ زمن بعيد وانصرف عنها إلى ما هو أسمى منها من الاهتمام بفلسفة الحياة ومثلها العليا ، فماذا تكون النتيجة ؟

## (١١) فضل الخوارزمى

فاذا سلمنا بانهزام الخوارزمى فليست هذه الهزيمة مما ينقص من مكانته العالية عندنا ، فقد يكبو الجواد وكثيراً

ما صاحب التوفيق من ليس له أهلا وخذلت الظروف من هو أجدر الناس بالفوز . وربما أجبلت القريحة الوقادة كما حدث للحريرى فى موقفه المشهور .

ومن الناس من يصلح للكتابة ولا يصلح للخطابة ومنهم من يلائمه الجو الهادىء ويؤذيه الصخب . ولقد تلعثم مثلا أبو على القالى — وهو الأديب الكبير — وأرتج عليه حين أراد الترحيب برسل ملك الروم في الأندلس واظهار مجد الاسلام أمامهم[1] فهل دل ذلك على شىء أكثر من أن لكل مقام ناساً لا يصلحون الا له ؟ فلأبى على القالى التفكير الهادىء والبحث الأدبى المطمئن ، وتمحيص الروايات والأسانيد ، ولغيره ذلاقة اللسان والثرثرة والتأثير الخطابى على نفوس العامة ، وليس فى استطاعة أحدهما أن يقوم مقام الآخر .

---

(١) لما أمره الناصر بالكلام حمد الله وصلى على النبى ثم أرتج عليه لهول المحفل وأبهة الخلافة ، قالوا : « وانقطع وبهت ، فما وصل إلا قطع ، فوقف ساكتاً مفكراً . فلما رأى منذر بن سعيد البلوطى ذلك قام قائماً بدرجة من مرقاة ابى على ، ووصل افتتاحه وخطب خطبة ضافية ، ( ارجع الى كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى للمؤلف ص ٢٠٦ ) وقد كانت هذه الخطبة سببا فى رفع شأنه بعد ذلك كما رفعت هذه المناظرة من شأن الهمذانى !

وللهمذانى كذلك دولة الألفاظ يلعب بها لعب الماهر الحاذق بالشِّطْرَنْج ، وللخوارزمى التوفيق فى التعبير عما يدور بنفسه من أدق المعانى وأخفى الخوالج ، وعرضها على الناس فى أجمل معرض .

## (١٢) أسباب الهزيمة

وجِماع القول أن الخوارزمى كان يعتد بنفسه أكبر اعتداد ويحتقر الهمذانى ، ولا يرى فيه كفئاً جديراً بالاستعداد لمساجلته ، بينما كان الهمذانى يعد كل عدته فى سبيل الانتصار عليه لأنه كان يرى فى هذا الفوز ادراك أقصى غايات الشهرة . وكان شهود المناظرة ممن يكرهون الخوارزمى ويميلون الى الزراية عليه والحط من شأنه ـ كما قلنا ـ وقد بكر الهمذانى فى الحضور وأعد أركان الدفاع ورسم الخطط الهجومية ، واستمال الحاضرين بدعابته وظرفه ومداعبه وهيأ لنفسه كل أسباب الانتصار . وقد كان الهمذانى قوى العارضة حاضر البديهة سريع الخاطر وهذه أقوى عدة يعتد بها كل من يتصدى للمناظرة والجدل .

## (١٣) فضل المتناظِرَيْنِ

بقي علينا أن نقول — إنصافاً للحقيقة — :

إننا نتكلم الآن على الهمذانى وهو فى زمن المناظرة أيام كان يطمح إلى اغتصاب الشهرة اغتصاباً من أديب عصره الفذ « أبي بكر الخوارزمي »

على أننا جديرون أن نقرر أن الهمذانى قد وصل بعد ذلك — حين خلاله الجو عقب موت الخوارزمى — إلى منزلة إن لم تصل الى منزلة الخوارزمى فهى ليست جد بعيدة عنها .

ولا جرم أن الهمذانىَّ لم يبلغ هذه المرتبة إلا بعد أن وجه همته إلي الأدب الخالص والتعبير الصادق عن إحساسه .

ولو عاش إلى مثل سن الخوارزمي لما قصر عن شأوه . وربما مثل معه أحد الناشئين نفس هذه الرواية التي مثلها مع الخوارزمى .

على أن كلا الأديبين — فى التقصير والنبوغ على السواء — متفق فى العناية بالسجع والمحسنات اللفظية التي لا يرضاها عصرنا وإن كان السجع قد أصبح لكليهما سجية ، وكان لا يجيء منهما إلا عفو الخاطر فلا تكاد تشعر بتكلف فى صياغته لا سيما فى كلام الخوارزمِيِّ المملوء حكمة وتعقلا .

فإذا تعنت ناقد فعرض علينا شيئاً من سخافاتهما محاولا إسقاط قيمتهما ، عرضنا له أضعاف ذلك من حسناتهما ، وقلنا له : « إن كائناً من كان ، لا يخلو من سقط » .

* * *

على أنهما كانا متأثرين بعصرهما فى ذلك ، وقد حملا لواء الزعامة متعاقبين وكانا قدوة للناشئين من الأدباء كما كانا محل تبجيل أساطين الأدب فى ذلك العصر الحافل بالأدباء .

# - ٢ -

# مناظرة الكسائي وسيبويه

## مسألة العقرب والزنبور

«وليس يخلو امرؤ من حاسد أضم
لولا التنافس ـ في الدنيا ـ لما أضما
والغبن ـ في العلم ـ أشجى محنة علمت
وأبرح الناس شجواً عالم هضما»

«حازم القرطاجني»

# بين الكسائيّ وسيبويه[١]

كان من أثر المناظرة التي قامت بين « الهمذانى » و « الخوارزمى[٢] أن « الخوارزمي » مات بعد قليل من الزمن ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة . وكان من أثر المناظرة التي قامت بين « الكسائى[٣] » و « سيبويه »[٤]

---

(١) نشرت بمقتطف غسطس سنة ١٩٢٩

(٢) انظر ص ( ١٨ )

(٣) الكسائى

توفى سنة ١٨٩ هـ .

اسمه « على بن حمزة » وكنيته « ابو الحسن » وهو امام أهل الكوفة فى النحو ، وهو أحد القراء السبعة المشهورين . وكانت نشأته بالكوفة ثم خرج الى بغداد بعد أن برع فى النحو واللغة واتصل بالمهدى ثم صار مؤدب الامين ونال مكانة ممتازة فى حاشية الرشيد .

قالوا : « وقد تعلم — على كبر — وكان سبب ذلك أنه لحن مرة أمام جمع من طلبة العلم فعابوها عليه فأقبل على الدرس حتى أصبح من أئمة النحو الممتازين .

قالوا : « وكان يروى الشعر وليس له فيه جيد نظر . » وتوفى بالرى سنة ١٨٩ هـ .

(٤) سيبويه

توفى سنة ١٧٧ هـ .

اسمه « عمرو بن عثمان » وكنيته « أبو بشر » أصله فارسى . وقد كانت ولادته بالبيضاء ونشأته بالبصرة . وهو — بلا منازع — امام أهل البصرة وحجتهم فى النحو . وقد لازم الخليل بن احمد واستفاد منه وكان ذلك سبب تفوقه وبراعته .

قالوا : « وكان يطلب — اول امره — الحديث والفقه ، فعيبت عليه لحنة لحنها فى مجلس شيخه فخجل ، وطلب النحو حتى صار امام عصره فيه . » قالوا « ولقب سيبويه بالفارسية ومعناها : رائحة التفاح » وتوفى سنة ١٧٧ هـ . وسنه نيف واربعون سنة

أن « سيبويه » مات كمداً وهو فى ريعان شبابه وجِنّ نشاطه وكما يقولون — ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة .

« ليست الطرق التي لجأ إليها « الكسائى » بأقل قسوة من تلك الطرق التي سلكها « الهمذانى » للتغلب على الخوارزمى » والانتصار عليه .

ولقد قلنا فى المناظرة السابقة إن « الهمذانى » قد أعد عدته وهيأ لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه وزج به فى مجلس كله خصومة ولدد . ونقول فى هذه المناظرة إن « الكسائي » لم يقصر فى إعداد كل الوسائل لهدم « سيبويه » ولم يتعفف عن شيء فى سبيل الانتصار عليه .[1] وإذا كان « الهمذانى » قد لجأ الى تملق شهود المناظرة لينصروه على « الخوارزمى » واشترى ذممهم بهذه الحيلة فإن الكسائي قد لجأ أيضاً إلى نفوذه وجاهه وماله واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير

---

(١) قالوا : « وقد ارشى الكسائى العرب — وكانوا جماعة من المسترزقة الذين كان يعولهم — على ترجيح جانبه »

المؤمنين وسيلة للتغلب على « سيبويه »

ولئن شكونا فى المناظرة السابقة قلة المصادر التى نرجع اليها فى تحقيقها ولم نجد غير رواية « الهمذاني » نفسه وهى — كما قلنا — رواية خصم عن خصمه ، فإن ما نشكوه فى هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها وتباين رواياتها وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه .

على أن هذه الروايات — رغم اضطراب بعضها واختلافه فى التفاصيل — متفقة فى الأساس والجوهر ، فهى — من أية ناحية رأيت وبأية رواية أخذت — تدل على أن سيبويه قد ظُلِم وأن الحق كان فى جانبه .

فقد أجمع علماء النحو واللغة — فى زمن سيبويه وبعد زمنه — على أن الصواب ما قال وأن الكسائى كان فى الجانب الخاطىء . ولم يشذ عن هذا الاجماع إلا شيعة الكسائى والطامعون فى ماله أو جاهه والمحسوبون عليه وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية .

وليست هذه المناظرة على الحقيقة — إن صح أن

نسميها مناظرة — إلا نضالا بين مذهبين وحربا بين مدرستين ، مدرسة الكوفيين ومدرسة البصريين أساتيذهم ، ممثَّلتَيْن فى شخصى الكسائى زعيم علماء النحو فى الكوفة وشيخ مدينة السلام ، وسيبويه زعيم علماء النحو فى البصرة وتلميذ الخليل بن أحمد بن سيد أهل الأدب — كما كانوا يلقبونه — وقد تضافرت الاهواء — من سياسة وغيرها — على تغليب رأى الكسائى وترجيحه على رأى سيبويه[1].

* * *

على أن فضل سيبويه ذائع — رغم انتصار الكسائى عليه — وكتابه الذى ألفه فى النحو لم تبل جدته إلى اليوم ولا نزال كتاب نحو وأدب معاً وأسلوبه فى أعلى طبقات البلاغة ، وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيما لشأنه ،

---

(١) فقد كان العباسيون يقربون اليهم الكوفيين لانهم نصروهم فى دعوتهم ، وكان لهذا الاعتبار اكبر الاثر فى اتصالهم بالخلفاء .

وكان الزجاج[١] يقول . « إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة »

وقال الجَرْمِيُّ[٢] . « أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه »[٣]

وقال المازنى « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستح »

* * *

وقد كتب سيبويه هذا الكتاب الخالد فى الوقت الذى كان فيه الكسائى منصرفاً الى المناصب والاتصال بالخليفة والدعاية لنفسه بأنه العالم الفذ الذى استنفذ خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب وأن هذا زيادة على ما حفظه ، الى آخر هذه الدعاوى الفارغة التى لا يعنى بها

---

(١) ابو اسحق الزجاج

(٢) . ابو عمر الجرمى

(٣) يريد بذلك انه تعلم منه النظر وطريقة البحث الدقيق.

المنصرفون إلى العلم حقا والتى هى أشبه بالإعلانات التجارية. وهذا أسلوب فذ فى الدعاية لجأ إليه الكسائى — فى جملة ما لجأ — للوصول الى الشهرة.

وإذا رأينا علماء اللغة وأئمة النحو يحترمون «سيبويه» ويُقرون مذهبه، رأيناهم على العكس من ذلك - ينفرون من مذهب «الكسائى» ويرون فيه إفساداً للغة واضاعة للنحو.

قال « ابن دَرَسْتَوَيه » : « كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضرورة فيجعله أصلا يقيس عليه حتى أفسد بذلك النحو . »

وقال الأصمعى : « أخذ الكسائى اللغة عن أعراب من الحُطَمَة ينزلون بقُطْرُبُّل ، فلما ناظر سيبويه استشهد بلغتهم عليه . »

وقال محمد اليزيدى :

« كنا نقيس النحو فيما مضى
على لسان العرب الأوّلِ

فجاء أقوام يَقيسونه
على لُغَى أشياخ قُطْرُ بل
فكلهم يعمل فى نقض ما
به يصاب الحق لا يَأْتَلِى
إن الكسائىَّ وأصحابه
يَرْقَوْنَ فى النحو إلى أسفلِ»

وقال الزَّجّاج «أى إنصاف فى الرجوع الى أعراب وفدوا لحاجاتهم، وسيبويه رجل غريب وأخصامه أهل البلد والدولة؟ وإنما الحكم للعارف بالصحيح وغيره، وقد لا يعرف الأعرابى إلا لغته الشاذة»

الى آخر هذه الآراء.

وقد أشار «المعرى» الى تحامل الكسائي على سيبويه فى «رسالة الغفران» — وألمع الى بعض المناظرات التي قامت فى ذلك العصر — الحافل بالمناقشات والمناظرات بين علمائه — فقال فى معرض الكلام على تناسى الحسائك والأحقاد فى الجنة بين ألدّ الخصوم:

« فصدر أحمد بن يحيي [١] هناك قد غُسِلَ من الحقد على محمد بن يزيد [٢] فصارا يتصافيان ويتوافيان

وأبو بشر عمرو بن عثمان « سيبويه » قد رحضت [٣] سويداء قلبه من الضغن على « عليِ بن حمزة الكسائى » وأصحابه لما فعلوا به فى مجلس البرامكة « وأبو عبيدة » صافى الطوية لعبد الملك بن قريب [٤]. والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » [٥]

## كيف كانت المناظرة

لم يكد يرد سيبويه الى العراق حتى شعر الكسائى أن مركزه العلمي فى خطر وأن منافساً جديداً يحاول أن يغتصب منه مقام الزعامة .

قالوا : «وشق أمره على الكسائى فأتى يحي وجعفر ابن برمك وقال :

---

(١) ثعلب (٢) المبرد (٣) غسلت (٤) الاصمعى (٥) ارجع الى رسالة الغفران ( ج ١ ص ٦١ )

« أنا وليُّكما وصاحبكما وهذا الرجل إنما قدم إلى العراق ليُذهِب محلى . »

قالا : « فاحتل لنفسك فإنا سنجمع بينكما . »

وهكذا دبرت المؤامرة فى بيت البرامكة لهدم سيبويه

***

فلما حان الموعد حضر سيبويه وحده ، وجاء الكسائي ومعه الفَرَّاء والأحمر وغيرهما من أصحابه ، فسأله الفراء عن مسألة فلم يكد يجيبه عنها حتي قال له : « أخطأت »

وسأله عن ثانية فأجابه ، فقال له : « أخطأت »

ثم سأله عن ثالثة وقال له : « أخطأت »

فقال له سيبويه : « هذا سوء أدب منك . »

فقال الفراء لصاحبه ساخراً : « يظهر أن فى هذا الرجل عجلة وحدة ! »

وسأله « الأحمر » عن عدة مسائل فكان يخطئه في كل

جواب يفوه به .

قالوا ـ « فلم ير سيبويه إلا أن يكف عن مناقشتهما »

وهنا يقول له الكسائى —ولعلك تلمح فى جملته معنى التحقير والاستصغار — « يابصرى كيف تقول :

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذاهو هى ؟ أو فإذا هو إياها ؟ »

قال — « أقول فإذا هو هى » .

فأقبل عليه الجمع فقالوا : « أخطأت ولحنت »

وفى هذا مثال آخر من أمثلة من التهويش والتحامل على سيبويه .

وهنا يقول يحي بن خالد بن برمك . « هذا موضع مشكل فمن يحكم بينكم ؟ »

فيقول الكسائي : « هؤلاء الأعراب على الباب »

قالوا : « فأدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه »

فقال لهم الكسائي . « كيف تقولون : قد كنت

أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا الزنبور اياها بعينها . »

فقالت طائفة — « فإذا الزنبور هى » .

وقالت أخرى — « فإذا الزنبور إياها بعينها . »

فقال الكسائى : « هذا خلاف ما تقول يا بصرى ! »

* * *

وهنا يقبل « يحيى » رب الدار على « سيبويه » ـ وهو الغريب المستوحش — فيقول له ما يشعره بأن صاحب الدار من رأى الكسائى وشيعته :

« قد تسمع أيها الرجل »

فلا يكاد يسمع سيبويه هذه الجملة حتى يستكين . ويسرع الكسائى إلى «يحيى» فيقول له حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت وأن الغلبة قد تمت له :

« أصلح الله الوزير ، لقد وفد عليك من بلده مؤملا فإن رأيت ألا ترده خائباً ؟ »

فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم .

* * *

وكأنما ألف الكسائى أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه إقرارهم بزعامته العلمية التي يسعى إلى الانفراد بها عند الخليفة . ولعله حسب أن هـذه المنحة تنسى سيبويه تلك الصدمة العنيفة التى سببها له .

على أن الكسائى طالما اشترى بالمال ألسناً وذمماً .

ألا ترى إلى الأخفش يذهب إلى الكسائى غاضباً متحمسا — بعد أن أخبره سيبويه بما حدث له معه — فيسأل الكسائى وهو بين تلاميذه ويخطئه فى كل جواب يقوله ، فيهم تلاميذ الكسائى بضربه ، فيمنعهم الكسائى من ذلك — خوفاً من ذيوع أمره — ويقبل عليه فيعانقه متحبباً اليه ويعهد اليه بتعليم أولاده ، ويرشوه بالمال فينسيه بذلك ثأر صديقه سيبويه ؟

ولقد كان من بين تلاميذ الكسائى من هو أعلم منه وأجدر بالزعامة — كالفرّاء مثلا — وما كان مثل الفرّاء ليقبل أن يكون تلميذاً للكسائي لولا طمعه فى جاهه وماله وأمله فى أن يتصل بالخليفة — بفضل صحبته له — وقد تم له ما أراد بعد ذلك .

***

وربما استشهد لنا أحد الأدباء الناقدين بقول الفرّاء نفسه للتدليل على فضل الكسائى :

« قال لي رجل : ما اختلافك إلى الكسائى وأنت مثله فى النحو ؟

فأعجبتني نفسي فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء فكأنى كنت طائراً يغرف بمنقاره من البحر . »

فإن أمثال هذه المدائح يجب أن تفهم على وجهها الصحيح ، فهي نوع من تملق ذوى النفوذ طمعاً فى جاههم وتقرباً إليهم .

ألا ترى إلى «ابن الرومى» نفسه ـ وهو الشاعر الفحل ـ يلجئه العوز والفاقة ونكد الدنيا إلى امتداح بيت سخيف قاله ابن المعتز، حين سألوه: «لم لم تشبه مثل تشبيه ابن المعتز فى قوله:

وبدا الهلال كزورق من فضة

قد أثقلته حمولة من عنبر »

فتظاهر لهم بإكبار معنى هذا البيت التافه وإعجابه بما فيه من تشبيه متكلف وعجزه عن محاكاته ـ تملقاً لقائله لرفعته وسمو منزلته!

ولقد سئل الفراء نفسه عن الكسائى ـ بعد موته ـ فقال: «مات الكسائى وهو لا يحسن حد نِعْمَ وَبِئْسَ وأن المفتوحة [1]».

ولا نظننا متحاملين على الكسائى حين نثبت هنا ما يرويه بعض المؤرخين عنه من أنه «كان متهتكا فاجراً» ونحن

---

(١) ومن العجيب أن أحدهم قال فى الفراء نفسه بعد موته :- « مات الفراء وفى نفسه شيء من حتى » وإن كان الفرق بين العبارتين واضحا.

نروى ذلك بشىء من التحفظ فلا نصححه ولا ننفيه ، فلعله من دسائس البصريين ، على أننا لا نستبعده ، فليس اتصاله بالخليفة وتعهد أبنائه بالتربية مما يعصمه من اقتراف الدنايا والآثام ولو سراً .

وقد تعلم الكسائى — وهو كبير — وانصرف سيبويه الى العلم منذ حداثة نشأته وأعجب الخليل بن أحمد بذكائه وكان يرحب به[1] ، وقدشهد له أكبر علماءالنحو بالتفوق والفضل ، واستعان بكتابه خصومه أنفسهم ، فقرأ الكسائى على الأخفش كتاب سيبويه وأعطاه سبعين ديناراً — أجراً على ذلك — وقد وجد بعضه تحت وسادة الفراء التى كان يجلس عليها ، كما قال النحاس .

## رأى النحاة فى هذه المسألة

قالوا : « وأما سؤال الكسائي فجوابه ما قال سيبويه وهو : « فإذا هو هي » هذا هو وجه الكلام مثل : « فإذا

(١) كان الخليل يقول له : « اهلا بزائر لا يمل مجلسه » ولم يكن يقولها لغيره .

هى بيضاء » ، « فإذا هى حية » وأما « فإذا هو إياها »
— إن ثبت — فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء
ولايعتدُّ به، كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل . وسيبويه
وأصحابهُ لا يلتفتون لمثل ذلك وإن تكلم به بعض العرب» .

***

وقد لخص « حازم القرطاجنى[1] » هذه المناظرة
في منظومته الجميلة فى النحو التي يقول فيها — :

والعرب قد تحذف الأخبار بعد « إذا »
إذا عنتْ فجأة الأمر الذى دهما
وربما نصبوا بالحال بعد « إذا »
وربما رفعوا من بعدها رُبَمَا
فإن توالى ضميران اكتسى بهما
وجه الحقيقة من إشكاله غمما

(١) هو الامام الاديب « ابو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى الأنصارى »

لذاكَ أعيت ـ على الأفهام ـ مسألة
أهـدت إلى سيبويه الحتف والغما :

« قد كانت العقرب العوجاء أحسبها
ـ قدما ـ أشد من الزنبور وقع حمـا »

وفى الجواب عليها ـ هل: «إذا هو هى»
أوهل : « إذا هو إياها » ـ قد اختصما

وخطأ ابن زياد[1] وابن حمزة[2] فى
ما قال فيها أبا بشر[3] وقد ظلمـا »

الى أن يقول :

« وليس يخلو امرؤ من حاسد أَضِم
لولا التنافس فى الدنيا لمـا أَضِما

والغبن ـ فى العلم ـ أشجى محنة علمت
وأبرح الناس شجوا عالم هضما »

***

(١) الفراء .
(٢) الكسائى .
(٣) سيبويه .

وقد حدث لأبى عثمان المازني ماحدث لسيبويه ، قال:

« دخلت بغداد فأُلقيتْ علىّ مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم . »

قالوا : « وهكذا اتفق لسيبويه »

* * *

وجماع القول أن سيبويه قد هُزِم ـ رغم فضله وعلمِهِ وكونِهِ فى جانب الحق ـ ولم يكن له بد من السكوت والرضى بالهزيمة فى هذا المجلس الحاقد .

ومثّل لنفسك أيها القارئ مجلساً حافلا بأعيان الدولة وقادة الرأى فيها، يجمع ـ مثلا ـ على أن «لم» تنصب ولا تجزم، وأنت وحدك تقول: « إنها تجزم ولا تنصب ، وإن العرب لا تعرف غير ذلك » وهم لا يسمعون لك قولا ، فأية حجة تستطيع أن تدلى بها فى مثل هذا المجلس المتحامل الذى ينكر عليك ما لا سبيل الى إنكاره ؟

كذلك كان موقف سيبويه ، يقرر قاعدة أجمع علماء

النحو على أن خلافها شاذ لا يؤخذ به ، فلا يقبل منه قول .

ولقد كان فى لسان سيبويه حبسة — كما يقولون — ولكنها لم تكن السر فى هزيمته(١) فهو لم يقصر فى الكلام ، ولم يكن ذلك المجلس المتحامل عليه فى حاجة إلى خطيب لسن ، بل كان فى حاجة إلى آذان واعية وقلوب لم يفسدها الهوى والغرض .

***

وهكذا تمت الهزيمة، فذهب « سيبويه » الى فارس، ولم تطل مدته بعد ذلك .

قالوا : ولما اعتل سيبويه وضع رأسهُ فى حجر أخيه فبكى أخوه لمّا رآه — لِما بهِ — فقطرت من دمعه قطرة علي وجهه ، فرفع سيبويه رأسه اليه فرآه يبكى فقال :

« أُخَيَّيْن كُنا ، فرّق الدهر بيننا .

إلى الأمد الأقصى، ومن يأمن الدهر ؟! »

---

(١) فقد ناظر سيبويه بعض العلماء ولم تمنعه حبسة لسانه عن الانتصار عليه ، قال عمرو بن مرزوق : رأيت سيبويه والاصمعى يتناظران ويقول يونس بن حبيب : « الحق مع سيبويه وقد غلب ذا - يعنى الاصمعى - بلسانه . »

ولقد قضى سيبويه جل حياته فى الدرس على خير أساتيذ عصره ـ لاسيما الخليل ويونس ـ ومات بعد أن ألف كتابه الخالد ـ وإن كان لم يدرسه ـ وختمت حياة هذا العالم الجليل دون أن يجنى ثمر جهاده .

رحمة الله عليه وعلى شيخيه الجليلين الخليل ويونس :

« تولى سيبويه ، وجاش سيب
من الأيام فاختل الخليل[١]

ويونس أوحشت منه المغانى
وغـيـر مصابه النبأ الجليل

أتت علل المنون ، فما بكاهم
من اللفظ الصحيح ولا العليل

ولو أن الكلام يحس شيئاً
لكان له وراءهم أليل . »

---

(١) الشعر لأبى العلاء .

# — ٣ —

# فى مجلس سيف الدولة

## بين المتنبي وأبى فراس

« وأما ابو الطيب فلم يذكر معه إلا ابو فراس وحده ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه . »

« ابن رشيق »

# (١)

## بين المتنبي وأبي فراس[١]

نشأ المتنبي من أصل وضيع ، فقد كان أبوه سقاء بالكوفة ، ولم يمنعه أصله الوضيع من أن يتطلع الى أسمى ما يتطلع اليه عظيم من مراتب السؤدد والرفعة ، فجد فى طلب العلم صغيراً وانقطع عامين الى الأخذ عن أعراب البادية ، ثم أكثر من الاطلاع على الكتب والاستفادة من العلماء ، حتى اذا أخذ بحظه من العلم والأدب تطلعت نفسه إلى الأخذ بنصيبها من المجد واغتصاب الشهرة اغتصاباً من بين براثن الأسود . وكان يتقرب — فى أول عهده — الى أعيان عصره وذوى النفوذ فيمدحهم بقصائده ، ليتخذهم سلماً الى ما تطمح اليه نفسه من العظائم وربما أثابه بعض ممدوحيه على إحدى قصائده بدينار واحد . [٢]

---

(١) نشرت بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٢٩

(٢) قالوا انه مدح على بن منصور الحاجب فلم يعطه إلا ديناراً واحداً على قصيدته التى أولها — : « بأبى الشموس الجانحات غواربا » والتى منها قوله :

« أظمتنى الدنيا — فلما جئتها مستسقيا — مطرت على مصائبا . »

فلما اتصل بأبي العشائر — والى انطاكية — قدمهُ إلى سيف الدولة ، فكان ذلك بدء شهرته الضخمة التى لانرى أبلغ فى وصفها من قول المتنبى نفسه :

« وتركك فى الدنيا دويًّا كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر »

فقد بلغ المتنبي حظًّا من الشهرة لم يكد يظفر به شاعر عربي — قبله أو بعده — فملأ الدنيا وشغل الناس — كما يقول ابن رشيق — وعنى بشرح ديوانه أكثر من أربعين أديبًا منهم المعرى وابن جنى وهما من تعرف علمًا وأدبًا وفضلاً .

وكان المتنبي قبل اتصاله بسيف الدولة — كما يقول الثعالبى — « يمدح القريب والغريب ويصطاد ما بين الكركى والعندليب »

وقد صحب سيف الدولة نحو عشر سنوات[1] غمره فيها سيف الدولة بعطائه الجزيل ، كما افتنَّ المتنبي فى مدحه الذى خلدهُ به بين ملوك عصره قاطبة . وأنف المتنبى أن

(١) التحق به سنة ٣٣٧ هـ ثم فارقه ودخل مصر سنة ٣٤٦

# يمدح — بعد ذلك — من هم دون الملوك مرتبة ومقاماً فترفع عن مدح المهلبي والصاحب[١] — مع سمو منزليتهما — كما أنف أن يمدح غيرهما من الأعيان والأمراء

(١) وقد جلب على نفسه عداوة هذين الزعيمين باحجامه عن مدحهما وترفعه عنهما ، قالوا :

«ولما قدم أبو الطيب — من مصر إلى بغداد — وترفع عن مدح المهلبي الوزير ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه وتباروا فى هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه . فلم يجبهم ولم يفكر فيهم . وقيل له فى ذلك فقال :

إنى فرغت من إجابتهم بقولى لمن هم أرفع منهم طبقة من الشعراء :

« ارى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا »

وقولى :

« أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول
لسانى بنطقى صامت عنه عادل وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل
واتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبى فيهم ، غير اننى بغيض إلى الجاهل المتعاقل »

وقولى :

« وإذا اتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل »

قالوا : « وقد ارسل اليه الصاحب — وقد طمع فى زيارة المتنبى اياه باصبهان واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان — وهو إذ ذاك شاب ولم يكن قد استوزر بعد وكتب إليه يلاطفه فى استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم له المتنبى وزناً ولم يجبه على كتابه ولا إلى مراده وقصد الى عضد الدولة . »

قالوا : « فاتخذه الصاحب غرضاً يتلمس سيئاته وهو أعرف بحسناته . »

وكان فى المتنبي صلف وعجرفة واعتداد بالنفس إلى أقصى حد ، فكثر أعداؤه وحاسدوه ، وكان كلما أمعن فى احتقارهم والزراية عليهم ، أمعنوا فى الكيد له وتلمس العيوب والسقطات .

وكان من أسباب تعاليه عن الناس واحتقاره اياهم أنهم طالما عيروه بضعة أصله [1] وفاخروه بأحسابهم ، فتأصلت فيه طبيعة الاحتقار لهم والحقد عليهم [2] . ولعل أبلغ ما يمثل

---

(١) وقد عيروه بذلك ـ حتى بعد ان وصل الى ذروة الشهرة ـ فمن ذلك قول بعض الشعراء :

«اى فضل لشاعر يطلب الفضـ   ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة المـا   ء ، وحيناً يبيع ماء المحيا »

على أن المتنبي كان يعترف بأن أصله وضيع وأن فخاره بنفسه لا بابائه ، وقد أشار الى ذلك عدة مرات نجتزى منها بقوله فى رثاء امه :

«ولولم تكونى بنت اكرم والد   لكان اباك الضخم كونك لى اما»

وقد قلد فيه قول ابن الرومى فى ابى الصقر :

« قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم   كلا لعمرى ، ولكن منه شيبان
كم من اب قد علا بابن ذرا شرف   كما علت برسول الله عدنان»

(٢) ملأ ابو العلاء المعرى لزومياته بذم الناس . ولكنه لم يحقد على احد بل كان — على العكس من ذلك — يتوخى الاصلاح وينشد المثل الأعلى ، ولا كذلك كان المتنبي ، فقد كان كثيراً ما يحقد عليهم دون ان يتوخى اصلاحهم .

لنا هذه الطبيعة الحاقدة من شعره هو قوله :

«ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم – إذا ظفروا به –
ولا في الردى – الجارى عليهم – بآثم[1]»

ولقد كان المتنبى شديد الأثرة بعيد الأنانية، لا يعنيه إلا نفسهُ، يرى كل من فى الوجود مسخراً له وحده . فالملوك لم يخلقوا الا ليغمروه بجاههم ومالهم، والجماهير لم تخلق الا لتهتف له وتعلأ الدنيا اعجاباً بشعره، وعلماء عصره لم يوجدوا الا ليناقشوا اقواله ويفردوا له الشروح المديدة ، وشعراء العربية قاطبة لم ينظموا إلا ليتخير من روائعهم ما يحلو له أن ينظمه ويضعه فى صيغته

---

(١) ومن هذه القصيدة قوله :

«من الحلم ان تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وان ترد الماء الذى شطره دم فتسقى، إذا لم يسق من لم يزاحم»

النهائية ، فكأنما هم يهيئون له «مشروعات قوانين» ليصدرها — بعد ذلك — للناس مراسيم .

وهو فى أكثر المعاني التى يسطو عليها — كما يقول الثعالبى — : « يأخذها عباءة ويردها ديباجاً ويرسلها مثلا سائراً » . والحق أنك تقرأ شعر المتنبي فتحس كأن صوت القدر يملي على الناس قوانين الحياة إملاء .

* * *

أما «أبو فراس» فقد نشأ من طبقة الأرستقراطية وبيت الملك ، وهو — على قرابته من سيف الدولة — شاعر فياض الشاعرية وأسلوبه — فى أكثر شعره — فى أعلى طبقات البلاغة ، وهو من أحب الشخصيات وأظرفها ولشعره جمال رائع لصدق عاطفته وعنايته بتخير اللفظ وحسن الأداء . وقد حكم النقاد بتفوقه على ابن المعتز فى الشعر — وصدقوا في حكمهم كل الصدق — فقد أفاد الأسْرُ شاعرية أبي فراس وأنطقهُ الألم بأروع وأبدع مايقوله شاعر

مجيد[١]

قالوا : «وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه فلا ينبرى لمباراته ولا يجترئ على مجاراته ، لكنه لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له واجلالا ، لا إغفالا واخلالا »

فأما أن المتنبى كان يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه فلا ينبرى لمباراته ولا يجترىء على مجاراته ، فيرجع الى قرابة أبي فراس من سيف الدولة وما تجره عداوته على المتنبي من النكبات .

فقد كان سيف الدولة — كما يقولون — « يعجب جداً بمحاسن أبى فراس ويميزه بالاكرام على سائر قومه ، ويستصحبه فى غزواته ويستخلفه فى أعماله » . والمتنبى أحصف من أن ينبرى لمباراة من هذا شأنه ، وأجدر أن يتحامى جانبه ويشهد له بالتقدم والتبريز.

---

(١) وقع ابو فراس فى قبضة الروم اسيراً مدة اربع سنوات ، وقال فى اسره احسن ما قراناه له من الشعر صدق عاطفة واحكام اسلوب ودقه اداء . وليس يتسع هذا المقام للاستشهاد بشيء من ذلك .

وأما أن المتنبي « لم يمدح أبا فراس تهيباً واجلالا » فهو كلام يحمل بنا أن نفهمه على وجهه الصحيح ، فهو بلغة الساسة أشبه ، وماذا ينتظر معاصروه أن يعلل ترفعه عن مدح أبي فراس . وبمَ يجيبهم اذا سألوه : — « لم لم تمدح أبا فراس وقد مدحت من دونه من آل حمدان ؟ » . أكان يقول له : « إنني لم أمدحه اغفالا واخلالا » أم يقول لهم : « ان شعره لم يعجبني » . أم يصارحهم برأيه الذى اضطر الى الافضاء به — بعد ذلك — حين صرّح الشر وانكشف الغطاء فقال :ـ

« أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

ليس أمامه مايزعمه إلا أن يقول إنه يتهيبه . ولو أن سائلا خبيثاً همس فى أذنه :—

« وكيف مدحت سيف الدولة إذن ؟ ألا تتهيبه أيضاً ؟ »

لما أجابه المتنبي حينئذ بأكثر من ابتسامة الهازئ العابث أو إعراضة المتخلص الهارب . وكيف نرضى بهذا التعليل الذى يقنع به الثعالبى وغيره ، ونحن نرى المتنبى قد مدح من أسرة حمدان من هم دون أبى فراس مقاماً كما مدح سيف الدولة ـ رأس الأسرة الحمدانية ـ وهو أجدر بالتهيب والإجلال إن كان المتنبي ممن يتطرق الى نفسه تهيب أو اجلال لكائن من كان .

لقد كان أبو فراس شاعراً ، وشاعراً فحلا ممتازاً ، وحسبك بهذه الميزة سبباً ينفر المتنبى من مدحه . ولا تنس أن المتنبى كان يتطلع الى حمل لواء الزعامة الأدبية فى عصره ويرى أن ذلك أيسر ما يجدر به أن يفعله ، لأن نفسه الوثابة كانت تتوق الى ما هو أسمى من زعامة الشعر وأعظم خطرا[1].

---

(١) كانت نفس المتنبى تطمح إلى الملك أيضاً ، وقد اشار إلى ذلك مراراً نجتزىء منها بقوله مخاطباً كافور الاخشيدى :

«وغيرك كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذى جاء غازيا لسائلك الفرد الذى جاء عافيا »

فكيف يشيد بذكر شاعر ـ كأبي فراس ـ يزاحمه في زعامة الشعر[1] ؟

الحق أن المتنبي وأبا فراس لم يكن من سبيل الى التأليف بينهما ، فقد كان أبو فراس يرى في المتنبي رجلا من السوقة رفعهُ الشعر درجات فوق ما يستحق ، كما كان المتنبي يرى في أبي فراس أميراً ذكيًا رفعت الامارة من شعره درجات فوق مايستحق ، وأكسبته شهرة في الأدب لم يكن ليصل اليها لولا قرابته ومكانته من سيف الدولة . فكان ينطبق عليهما قول أبي الاصبع العدواني :

« فخالني دونه ، بل خلته دوني »

فأبو فراس يرى فيه ابن سقاء مزهوًا بشعره ، شامخًا بأنفه إلى السماء ، متعالياً في غير جدارة بالعلاء ، بالغاً من سيف الدولة مكانة لم يبلغها سواه . والمتنبي يرى فيه شاعراً ينافسه

(١) ولقد كاد يخمله المتنبي ـ فيمن اخمل من شعراء عصره المبرزين ـ وليس ادل على ذلك من تصدى جمهرة كبيرة من الشارحين والناقدين والهاجين والمادحين له حتى طبقت شهرته الافاق وملأت الدنيا في حين لم يصل ابو فراس الى شيء يذكر من هذه الحفاوة العجيبة .

ويغار منه ويحسده على مكانته ويدنى خصومه من مجلسه، فبأى لسان يمدحه المتنبي؟ وكيف يهش له أبو فراس أو يصفيه الود خالصاً؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد خلق المتنبى بسبب تعاليه وصلفه — كما أسلفنا — كثيراً من الحساد والخصوم وكان يزيد في حسدهم له ما يرونهُ من إقبال سيف الدولة عليه، فلم ينوا عن الوقيعة والدس واتخذوا من إدلاله على سيف الدولة (١) مطعنا ينفذون منهُ اليه.

فهذا أديب يكيد له عند سيف الدولة فيقول له — حين ينشده إحدى قصائده وهو قاعد —:

لو أنشدها قائماً لأسمع، فان أكثر الناس لا يسمعون لينبه سيف الدولة الى سوء أدب المتنبي فيجيبه المتنبي على هذا الدس الخبيث ببديهته الحاضرة الموفقة، أما سمعت أولها:

---

(١) كان المتنبي كثيرا ما يمتدح نفسه فى القصائد التى يمدح بها سيف الدولة فأعان بذلك حساده وخصومه عليه

« لـكل أمرىء من دهره ما تعودا »

فيخرس حاسده بذلك (١)

وهذا شيخ يحسد المتنبي على عطاء أجزله له سيف الدولة حين قرأ قصيدتهُ التى فيها قوله :

« يأيها المحسن المشكور من جهتى

والشكر من قبل الاحسان لاقبلى»

فلا يطيق مغالبة حسده بل يظهره أمام سيف الدولة فيمنحهُ من العطاء مايخفف بهِ موجدته على المتنبي .

وهذا ابن خالويه — مؤدب سيف الدولة وأحد شيوخ المدرسة القديمه فى عصر المتنبي — لا يألو جهداً فى تنقصه وثلبه ، فقد كانت عدواتهما مزدوجة ، فهى عداوة بين متنافسين وعـداوة بين مدرستين كذلك . فقد كان ابن

---

( ١) قالوا : ان المتنبي انشد سيف الدولة قصيدته الى اولها « لكل امرىء من دهره ما تعودا »

فلما عاد سيف الدولة إلى داره واستعاده اياها انشدها قاعدا ، فقال بعض الحاضرين — يريد ان يكيد ابا الطيب —: « لو انشدها قائما لأسمع ، فان اكثر الناس لا يسمعون ! »

قال ابو الطيب :—

اما سمعت اولها : « لكل امرىء من دهره ما تعودا ؟ »

خالويه زعيم الجامدين فى اللغة والاوضاع وكان المتنبي زعيما من زعماء التجديد فيهما جميعاً . كان ابن خالويه يرى نفسه خادم اللغة الأمين ، وكان المتنبى يرى نفسه سيدها والمتصرف فيها والمجدد فى أساليبها وأوضاعها . (١) كان ابن خالويه يُعنَى نفسه بالقياس وتتبع ما ورد عن العرب وما لم يرد ، حينما كان المتنبي مطلقاً نفسه من هذه القيود ، يختار منهاما يلائم ذوقه من الصيغ اللفظية والبيانية ، هازئاً بانصار الجمود من معاصريه ، واثقاً من سلامة ذوقه وصفاء طبعه ، ينشدهم هذا البيت الذى يعبر عن نفسه عن أحسن تعبير :

« أنام ملء جفونى عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم. »

وليست خصومة هؤلاء المقربين عند سيف الدولة للمتنبى بالخطب اليسير ، فقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهى ما اشتد من قوته —وقد شعر المتنبي بخطر

---

(١) كان المتنبي يتخذ ابن الرومى نموذجا فى التجديد وبالافتنان فى الالفاظ والمعانى

حساده ومنافسيه وظهر أثره فى بعض قصائده ، ومن ذلك قوله لسيف الدولة :

« أزل حسد الحساد عنى بكبتهم
فأنت الذى صيرتهم لى حسَّدا »

وقد انتهت هـذه الدسائس كلها بالنتيجة الطبيعية ، فأحفظت سيف الدولة عليه ، وجعلته يعرض عنه — بعد اقبال — وانتهت هذه المؤامرات المتوالية بتغريب المتنبى ، ونفوره من سيف الدولة وسفره الى كافور هربا من هذا الجو الموبوء بالدسائس والمكائد الخبيثة

ويظهر لنا أن أعداء المتنبي أفلحوا فى تنفير أبى فراس منه -قبل أن يفلحوا فى تنفير سيف الدولة - وكان أبو فراس كما أسلفنا مستعداً لذلك . فلما امتلأت نفسه حقداً على المتنبي ، تولى الكيد له عند سيف الدولة الذى يحبه ولا يرد له قولا .

قالوا : وكان أبو فراس يقول لسيف الدولة « ان هذا المتسمى كثير الدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف

دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره [١] » . وثمة امتلأت نفس سيف الدولة بأمثال هذه الوشايات فأعرض عن المتنبي وظهر اعراضه واضحاً جلياً فى ثلاث مناسبات : أولاها : حين عاد المتنبى اليه بعد ذلك — وكان غائباً . والثانية : حين أنشده قصيدته الرائعة التى أولها « واحر قلباه من قلبه شبم » . والثالثة حين ناظره ابن خالويه فى مجلسه.

***

وما كاد المتنبى يلمح إعراض سيف الدولة ويتعرف سر هذا الإعراض حتى دخل عليه وانشده قصيدته التى يقول فيها :

« وما لى اذا ما اشتقت أبصرت دونه
تنائف لا أشتاقها وسباسبا
وقد كان يدنى مجلسى من سمائه
أحادث فيها بدرها والكواكبا

(١) لعلك تلمح فى هذه الجملة رأى ابى فراس فى المتنبي ، وهو يؤيد ما ذكرناه من قبل

حنانيك مسئولا ، ولبيك داعياً
وحسبي موهوباً وحسبك واهبا
أهذا جزاء الصدق ، ان كنت صادقاً
أهذا جزاء الكذب ان كنت كاذباً ؟
وان كان ذنبي كل ذنب ، فإنه
محا الذنب كل المحو من جاء تائباً »

٭٭٭

قالوا : فأطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته ، فخرج المتنبي من عنده متغيراً .

# ( ٢ )

## مناظرة المتنبي وأبي فراس[١]

لك أن تسميها مناظرة ولك أن تسميها مهاترة ، بل سمها — إن شئت — منافرة ، أما نحن فلا نراها إلا مؤامرة.

نعم فهي مؤامرة محكمة دبرها أعداء المتنبي ولم يألوا فى تدبيرها جهداً ، رغبة فى هدمه والقضاء عليه . ولم يدبروا هذه المؤامرة المجرمة لهدم شهرته الأدبية وحدها كما رأينا فى مناظرة « الهمذانى والخوارزمى[٢] » وفى مناظرة « الكسائى وسيبويه[٣] » بل كانوا يرمون إلى أبعد من ذلك ، فقد قصدوا بها إلى غرضين ، أولهما أن يهزموه فى مجلس سيف الدولة ، وثانيهما أن يقتلوه غيلة — بعد خروجه من عنده — بل لقد همّ جماعة بقتله فى حضرة سيف الدولة نفسه .

وقد رأى القراء — فى مقالنا السابق كيف أعرض

---

(١) نشرت بمقتطف ديسمبر سنة ١٩٢٩

(٢) ارجع الى « ص ١٨ »

(٣) ارجع الى « ص ٣٨ »

عنه سيف الدولة ـ بعد إقبال ـ وكيف أفلحت دسائس خصوم المتنبى ــ وعلى رأسهم « أبو فراس » و « ابن خالويه » — فى تنفير سيف الدولة منه ، فقابله متجهماً وحاول المتنبى عبثاً أن يترضاه بقصيدته الرائعة[1] فلم يجد إلى ذلك سبيلا فخرج من عنده كاسف البال محزوناً ، وكان هذا الاعراض أكبر أثر ظاهر لنجاح خصوم المتنبى وأعدائه وأول ظفر باهر لفوز السعايات والدسائس عند سيف الدولة الذى لم يكن ليصيخ من قبل الوشاة أو يتأثر بدسائسهم ، أو الذى كان — على الأصح — لا يكاد يصغى إلى قول واش حتى ينصرف عنه متى سمع قصيدة جديدة من مدائح المتنبى الخالدة .

أما الآن فقد تغير عليه قلبه وأصبح لا يقبل عليه إلا ريثما يضاعف سخطه ويمعن فى النكاية به . قالوا :

«وكان من عادة سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شق عليه وأحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له فى

(١) انظر «ص٧٤»

مجلسه بما لا يحب وأكثر عليه مرة » فكان ذلك سبباً فى نظم « ميميته الفذة » التى نحن بصددها فى هذا الفصل .

ولقد تجلى فى هذه المرة إعراض سيف الدولة وتحيزه لخصوم المتنبى ، أكثر مما تجلى في إعراضه الاول .

***

وقد عرف المتنبي سر هذا الاعراض فأعد عدته ونظم ميميته الرائعة فأودعها كل ما أوتى من قوة ومقدرة فى الدفاع عن نفسه دفاع اليائس المستميت ، ولم يتورع عن مهاجمة الأمير « أبى فراس » الذى طالما أظهر له التهيب وزعم أنه لم يجرؤ على مدحه « إجلالاً » لا « إغفالاً »

ماذا ؟

بل ذهب الى أبعد من ذلك ، فهاجم سيف الدولة نفسه ولم يتهيبه وقرعه أشد تقريع .

ألا ترى اليه يعاتبه فيقول له مقرعاً :

« كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم

ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى

أنا الثريا ، وذانِ الشيب والهرم »

ثم يتهدده بالرحيل فيقول :—

« أرى النوى تقتضينى كل مرحلة

لا تستقل بها الوخَّادةُ الرُّسُم

لئن تركت « ضميراً »[1] عن ميامننا

ليحدثَنَّ — لمن ودعتهم — ندم

اذا ترحلت عن قوم — وقد قدروا

ألا تفارقهم — فالراحلون هم . »

ويقول :

« شر البلاد بلاد لا صديق بها

وشر ما يكسب الانسان مايصم »

ويعرض بأبى فراس فى قوله :

« أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

(١) «ضمير» اسم جبل على يمين طالب مصر من الشام ، وهو قريب من دمشق.

ويقرع منافسه بقوله :

« بأى لفظ تقول الشعر زعنفة

تجوز عندك لا عرب ولا عجم »

ويفخر على جميع الحاضرين فيقول :

« سيعلم الجمع — ممن ضم مجلسنا —

بأنني خير من تسعى له قدم ! »

الى آخر ما قال .

الحق أن المتنبي لم يكن فى هذه المرة شاعراً فحسب بل كان فارساً يتأهب لخوض غمار موقعة حربية حامية الوطيس مستهيناً بكل ما يلقاه فيها من أذى موطناً نفسه على كسبها أو الاستشهاد فيها .

ولقد خاطر المتنبي بنفسه فى هـذه المرة وغرر بها — وهو الذكى الحازم الحصيف — وركب مركبا وعراً ، وكأنما كان يضع نصب عينيه قوله :

« إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا

فما حيلة المضطر إلا ركوبها . »

وقوله :

« غـير أن الفتى يلاقى المنايا
كالحـات ولا يلاقى الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بدّ
فمن العجز أن تكون جبانا »

ولقد صدق فى قوله :

« لقد تصبرت حتي لات مصطبر
فالآن أقحم حتى لات مقتحم »

على أن المتنبى – رغم جرأته – قد أظهر فى هذا المقام براعة فائقة وحذقا ممتازاً عجيبا، فكان كالربان الماهر يغالب العاصفة الهوجاء بكل ما أوتى من يقظة ودربة وحزم.

لقد كان يعرف أن سيف الدولة مغيظ منه محنق عليه، وأن خصومه متأهبون لنضاله والكيد له ، وأنهم لم يصلوا الى ايغار سيف الدولة عليه الا بما أدخلوا فى روعه من تعاليه عليه وعجرفته وسوء أدبه ومدحه نفسه الى جانب مدحه اياه .(١)

(١) قالوا : « وكان المتنبى يتعالى على سيف الدولة وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه ويجفو عليه إذا كلمه والمتنبى يجيبه فى أكثر الاوقات ويتغاضى فى بعضها »

كان المتنبي يعرف ذلك ، ولـكنه أبى الا أن يُرْبي على الغاية فى مناوأة خصومه ، فـكال المدح لنفسه ولسيف الدولة بأوفى مكيال ، ورفع نفسه الى منزلة قلما كان يزعمها لنفسه فى كل مدائحه السابقة رغم ما يعرفه من حرج الموقف ودقته.

ولعل أول ما يستدعى انتباهنا فى هـذا المجلس الحاشد أمران :

قوة المتنبي ويقظته.

وبديهة أبى فراس وفطنته.

فقصيدته الميمية هذه اذا أخذتَ برأى القائلين ـ بأنه ارتجل أكثر أبياتها — تدل على قوة خارقة . واذا أخذتَ برأى القائلين ـ إنه أعدها من قبل ـ تدل على يقظة مدهشة وعلى تنبؤ عجيب بما توقع حدوثه من خصومه ، كما تدل على أنه كان فى هذه المرّة

« الألمعىّ الذى يظن بك الظن
كـأن قد رأى وقـد سمعا »

ولعل الجمع بين الروايتين هو الأقرب للعقل ، فقد

نظم المتنبي قصيدته وتوقع أشباه هذه المفاجئات فأعد لها عدته ، وساعدته نفسه الثائرة على ارتجال أبيات قليلة دفعه الى ارتجالها ذلك الظرف الحرج الدقيق[1]

٭ ٭ ٭

ولقد كاد يفتك بالمتنبي خصومه في حضرة سيف الدولة

---

(١) ولسنا بذلك ننكر على المتنبي قدرته على الارتجال وسرعة البديهة ، فقد شهد له النقاد بذلك وأثبتت الحوادث قدرته العجيبة على الارتجال ، فمن ذلك ما يروونه عنه وكان قد انشد بعض ابيات ولم يظهر معنى البيت الاول لقوم كانوا في مجلس سيف الدولة فقال :

«اتيت بمنطق العرب الاصيل    وكان بقدر ما عاينت قيلي
فعارضه كلام كان منه    بمنزلة النساء من البعول
وهذا الدر مأمون التشظي    وانت السيف مأمون الفلول
وليس يصح في الاذهان شيء    إذا احتاج النهار إلى دليل »

ومن ذلك مايروونه من أن بعض اصدقائه طلب اليه ان يصف له حادثة وقعت له فحكمه المتنبي في الوزن والقافية فقال صاحبه : «لا ، بل الامر فيها اليك»

فأخذ ابو الطيب، درجا واخذ صاحبه درجا آخر يكتب فيه كتاباً ، فقطع عليه ابو الطيب الكتاب وانشد ارجوزته المشهورة التي اولها : « ومنزل ليس لنا بمنزل »

واحب ان يرجع اليها القارىء في ديوانه .

وقد قال ابن رشيق في ذلك :— وكان ابو الطيب كثير البديهة والارتجال الا ان شعره فيهما نازل عن طبقته جداً ، وهو لعمري في سعة من العذر إذا كانت البديهة كما يقول ابن الرومي :

« نار الروية نار جد منضجة    وللبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لسرعتها    لكنها سرعة تمضي مع الريح »

– كما أسلفنا – وهمّ جماعة بقتله فى مجلس سيف الدولة – لشدة إدلاله واعراض سيف الدولة – فلما وصل فى إنشاده إلى قوله :

« يا أعدل النـــاس الّا فى معاملتى
كيف الخصام وأنت الخصم والحكم ؟ »

تصدى له أبو فراس فقال له :

مسخت قول دعبل وادعيته ، وهو :

« ولست أرجو انتصافاً منك ـ ما ذرفت
عيني دموعاً ـ وأنت الخصم والحكم. »

وليت شعرى كيف يكون الابداع والتجميل اذا عدّ هذا مسخاً وتشويهاً ؟ ولـكنه الهوى والغرض والتحامل.

وقد رأى المتنبي أن أبلغ ما يرد به على انتقاده هو أن يصارحه برأيه فيـه الذى طالما كتمه وأخفاه عنه ، فأنشد سيف الدولة :

« أعيـذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم . »

قالوا : فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال :

« ومن أنت يا دعى كندة حتى تأخذ أعراض أهل الأمير فى مجلسه ؟ »

ولكن المتنبي لم يعبأ به ولم يلتفت اليه بل استمر في إنشاده الى أن قال :

« سيعلم الجمع — ممن ضم مجلسنا —
بأنى خير من تسعى بهِ قدم
أنا الذى نظر الأعمى[1] الى أدبى
وأسمعت كلماتي من به صمم »

قالوا : فزاد ذلك غيظاً فى أبي فراس وقال :

« سرقت هذا من عمرو بن عروة ابن الورد فى قوله :

---

(١) قالوا ان ابا العلاء حين قرأ هذا البيت قال : « كأنما عنانى المتنبى بهذا البيت » ولقد كان اعجاب ابى العلاء بالمتنبى عظيما جداً ، واستدل بعضهم بهذا الاعجاب على تفوق المتنبي عليه ، وهو استدلال بعيد عن الصواب . فقد كان اعجاب المعرى بأبى الطيب من قبيل إعجاب العظيم بالعظيم والند بالند لا اعجاب التلميذ بالاستاذ . وان تأثر به فى صباه . وعندنا ان المتنبي — على عظمته وعلى اجلالنا له — إذا قورن بالمعرى شالت كفته ورجحت كفة ابى العلاء ، وفضله فى كثير من المزايا الباهرة التى اختص بها المعرى — او كاد — من بين شعراء العربية قاطبة ، وليس هنا مقام التفصيل والموازنة بينهما وانما هو رأى اثبتناه عرضاً .

« أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت

دهراً وأظهرت إغراباً وإبداعا

حتى فتحت بإعجاز خصصت به

ـ للعمى والصم ـ أبصاراً وأسماعا »

ولما وصل إلى قوله :

« والخيل والليل والبيداء تعرفني

والحرب والضرب والقرطاس والقلم »

لم يستطع منافسه أبو فراس أن يخفي موجدته عليه وأبى إلا أن يصارحه بالكيد ويدس له علناً عند سيف الدولة فقال له :

وما أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير ؟

أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعي :

« أعاذلتي كم مهمه قد قطعته
أليفَ وُحوشٍ ساكنا غير هائب
أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسُّرى
وَجود المذاكي والقنا والقواضب
حليم وقور في البلاد ، وهيبتي
لها في قلوب الناس بطش الكتائب»

ولعلك تلمح في قول أبي فراس : « وتأخذ جوائز الأمير » سرًّا من أسرار حقده على المتنبي .

ولما أنشد المتنبي قوله :

« وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟ »

قال أبو فراس : وسرقت هذا من قول معقل العجلي :

« إذا لم أميز بين نور وظلمة
بعينيَّ ، فالعينان زور وباطل ؟ »

ولمحمد بن أحمد بن أبى مرة المكى مثله :

« إذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى

فما الفرق بين العمى والبصراء ؟ »

* * *

قالوا : « وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته فى هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها ، وضربه بالدواة التى بين يديه » ولو كان المتنبي — كغيره من الناس — لانهزم مرغما بعد أن رأى روح الخصومة واللدد مهيمنة على هذا المجلس ، ولكن المتنبي ممن لا تزيدهم الخصومة إلا قوة على قوته ، ومن الناس من تشحذ الخطوب خاطرهم وتضاعف من يقظتهم وتقوى من حجتهم ، والمتنبي من هذا الفريق . قالوا : فقال المتنبى للحال :

« إن كان سركم ما قال حاسدنا

فما لجرح — اذا أرضاكم — ألم »

فلم يكد يسمعه سيف الدولة حتى انطلقت أساريره وبدا البشر على وجهه .

وأراد أبو فراس أن يسير على هذه الوتيرة فقال له :
أخذت هذا من قول بشار :

« اذا رضيتم بأن نجفى ، وسركم
قول الوشاة، فلاشكوى ولاضجر »

ومثله لابن الرومى : —

« اذا ما الفجائع أكسبنى رضاك فما الدهر بالفاجع . »

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قال أبو فراس وأعجبه بيت المتنبى

قالوا :

ورضى عنه فى الحال وأدناه اليه وقبل رأسه وأجازه بألف دينار ثم أردفه بألف أخرى فقال المتنبى :

« جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفا على ألف
أشبهها فعلك فى فيلق قلبته صفًا على صف . »

# ( ٣ )

# بين المتنبي وابن خالويه

« فوثب ابن خالويه على المتنبي ، فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، وخرج المتنبي ودمه يسيل على ثيابه »

## تحامل سيف الدولة

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب عندكم ضغن »
« المتنبي »

رأينا — في الفصل السابق — كيف تألب خصوم المتنبي عليه وكيف أجمعوا أمرهم على الكيد له . وعلى رأسهم أبو فراس الذي تصدى لنقد المتنبي وتزييف كل معانيه وإظهار سرقاته من الشعراء وقد بدا التحامل على المتنبي واضحاً جلياً ولولا أن بديهته الحاضرة ويقظته وحسن حيلته قد أنقذته من هذا المأزق لكان له مصير آخر لا يعلمه

إلا الله وحده .

ولقد أفلح خصوم المتنبي في مؤامرتهم وتم لهم إيغار صدر أميره عليه فضربه سيف الدولة بالدواة فقال المتنبي :—

« إن كان سركم ما قال حاسدنا

فما لجرح إذا أرضاكم ألم . »

ولم يكد سيف الدولة يسمع منه هذا المعنى الطريف حتى ابتسم له ورضي عنه وأجازه ولم يصغ إلى مطاعن أعدائه ولم يستمع إلى كلام أبي فراس، فكان ذلك الرضى نهياً لمن فى المجلس عن التمادى فى عدائهم للمتنبي وأمراً لهم بالكف عن تحديه وثلبه . فأنت ترى أن سيف الدولة هو دائما محرك القوم ومسكنهم، وموجه هذه الأشباح والصور فى الطريق التى يختطها ويرضاها ، فإذا شاء أنطقها وإذا شاء أسكتها . وأنت ترى أن فى يده وحده « مفتاح الخطر » وأن ابتسامة واحدة منه كانت كفيلة بإنصاف المتنبي وإدالته من خصومه

ولكن سيف الدولة لم يفعل ، وأبى ـ فى هذه المرة ـ

إلا أن يتجهم للمتنبي ويناصبه العداء ، كما ترى فى هـذا الفصل .

* * *

ولقدكان هذا الاعراض الواضح — بعد ما لقيه المتنبي من قبل — من إعراض سيف الدولة — سبب تغريب المتنبي يائساً منه واثقاً أن الدسائس قدأوغرت صدره عليه فلم يعد التودد له نافعاً . ولم يكن المتنبي يجهل أن ابن خالويه لم يشجُ رأسه إلا بساعد سيف الدولة وأنه ما كان ليجرؤ على ذلك لو لم يأمن عقاب أميره .

ومثل لنفسك رجلا كالمتنبي — فى مجلس سيف الدولة — يجادل ابن خالويه فينتصر عليه ويهزمه ، فلا يجد ابن خالويه مايرد به عليه إلا أن يضرب رأسه بالمفتاح فيشجه ، ثم يرى سيف الدولة راضياً بهذا الجواب الظالم ، ولا يتحرك أحد من الحاضرين لنصرة المتنبى .

فلا غرو اذا قال المتنبي بعد أن فارقهم :

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم

ولا يدر على مرعاكم اللبن »

ولقد طالما حذر المتنبي سيف الدولة عواقب هذا التحامل ، ولوح له بالفراق ، فما غير ذلك من سلوكه معه .

ولقد قال المتنبي فى إحدى قصائده :

« اذا ترحلت عن قوم – وقد قدروا

ألا تفارقهم – فالراحلون هم . »

وقال له – من قصيدة أخرى :

« أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تُعْطِيَنَّ الناس ما أنا قائل [1] »

---

(١) قال ابن جنى :

كنت قرأت ديوان أبى الطيب المتنبي عليه ، فقرأت قوله فى كافور ، القصيدة التى اولها :

«اغالب فيك الشوق ، والشوق اغلب      وأعجب من ذا الهجر ، والوصل اعجب»

حتى بلغت قوله :

« الا ليت شعرى هل اقول قصيدة      ولا اشتكى فيها ولا اتعتب
وبى ما يذود الشعر عنى اقله      ولكن قلبى – يا ابنة القوم – قلب
وأخلاق كافور – اذا شئت مدحه      وإن لم اشأ – تملى على وتكتب»

فقلت له :

« يعز على كيف يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة ! »

ولكن سيف الدولة لم يصغ اليه بعد أن تمكن الوشاة من إفساد العلاقات بينهما .

ولم ينس المتنبي — طول حياته — أثر هذه الوشايات والدسائس ، وقد أشار اليها — بعد ذلك — فى عدة مناسبات ، منها قوله فى ميميته المشهورة التى قالها بعد تغريبه إلي مصر :

« إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهُّمِ
وعادى محبيه — بقول عداته —
وأصبح في ليل من الشك مظلم »

وفى هذه القصيدة يقول :

« أصادق نفس المرء — من قبل فعله —
وأعرفها فى فعله والتكلم

---

فقال : « حذرناه فما نفع ، الست القائل فيه

انما الجود إعط الناس ما انت مالك و لا تعطين الناس ما انا قائل

فهو الذى اعطانى كافورا بسوء تدبيره وقلة تمييزه ! »

نقول : « وفى هذا الحديث — من الألم والزهو والغرور — ما لايخفى على القارئ »

وأحلم عن خلى ، وأعلم أنه
ـ متى أجزه يوماً عن الحلم ـ يندم . »

وقد أشار الى ذلك — فى نونيته المعروفة — حين بلغه أن حساده وشانئيه قد نعوه الى سيف الدولة ـ فقال متهكما بهم وإن كان تهكما لاذعا يخامره الحزن والألم :

« يا من نعيت — على بعد — بمجلسه
كل — بما زعم الناعون — مرتهن
كم قد قُتِلتُ وكم قد مِتُّ عندكم ،
ثم انتفضت فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفنى — قبل قولهم —
جماعة ، ثم ماتوا قبل ما دفنوا
ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن »

وفى هذه القصيدة يقول :

« وإن بليت بود — مثل ودكم —
فإننى بفراق — مثله — قمن »

***

وما زال المتنبي يذكر دسائس أعدائه ، حتى بعد أن زالت الوحشة بينه وبين سيف الدولة ، فقد اعتذر عن الرجوع إليه — بعد أن دعاه سيف الدولة — فقال :

« وما عاقنى غير خوف الوشاة
وأن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم
وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه
وينصرنى قلبه والحسب »

***

وجماع القول أن الوشاة قد أفلحوا في تغيير قلب سيف الدولة على المتنبى — شاعره المقرب المحبوب —

الذى سجل له شعره صفحات لا تمحى فى سجل الخلود ، فلم يعد سيف الدولة يهش له كعادته ، وقد كان — كما يقول المتنبي — « يدنى مجلســه من سمائه » ثم تنكر وأظهر له الجفاء . وكأنه لم يرض عنه فى المرة السابقة إلا ريثما يتحول عنه ويضاعف سخطه عليه ، ويسمح لمثل ابن خالويه بشج رأسه وهو فى مجلسه.

ولقد عاب بعض الأدباء على المتنبي سكوته فى مثل هــــذا الموقف وعدوه جبنا وخورا — ونراه حزما وأصالة رأى — ولو فعل المتنبي غير ذلك لــكان متهورا وطائشا ولأمكن أعداءه وحاسديه من الفتك به وأروى — بذلك الطيش — نفوسهم الظمأى الى الانتقام منه .

ولقد كان المتنبي واثقا من أن سيف الدولة إنما ينتقم منه فى هذه المرة بيد ابن خالويه ، وكان من عادة سيف الدولة — كما أسلفنا — إذا تأخر عنه مدح المتنبي أن يحضر من لاخير فيه ، فيتقدم بالتعرض له فى مجلسه بما لا يحب .

وقد أحضر له — فى هذه المرة — ألدّ خصومه وأشدهم

حسدا له وغيرة منه ـ وهو ابن خالويه ـ وقد ذكرنا آنفا أن عداوتهما مزدوجة ، لأنها عداوة بين مدرستين وعداوة بين متنافسين .

وكثيرا ما دارت بينهما المناظرات ثم انتهت بسلام ، أما فى هذه المرة فقد اجترأ ابن خالويه على المتنبي ـ لأمر مَّا ـ وضربه ـ فى حضرة سيف الدولة ـ فشج رأسه دون أن يحرك سيف الدولة ساكنا أو يبدى اشمئزازا من ذلك .

قالوا :

« وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء — كل ليلة — فيتكلمون بحضرته ، فوقع بين المتنبى وابن خالويه كلام ، فوثب ابن خالويه فضرب وجهه بمفتاح — كان معه — فشجه ، وخرج المتنبى ودمه يسيل على ثيابه . »

قالوا :

« فغضب المتنبي وسار إلى مصر وامتدح كافورا . »

## عداوة المتنبي وابن خالويه

أما عداوة ابن خالويه والمتنبي فهى ـ كما قلنا ـ عداوة أصيلة ، فقد كان المتنبي يترفع عنه وهو مؤدب سيف الدولة وزعيم علماء النحو واللغة فى حلب ، وقد كان المتنبي ـ على انفراده بزعامه الشعر فى عصره — أكثر تمكنا فى اللغة وأساليبها من ابن خالويه وأقدر على هزيمته رغم تخصص ابن خالويه فى درس اللغة والنحو .

ومن عجيب الأمور أننا نرى من يتخصص فى اللغة وحدها يعجز عن مباراة من يجمع ـ إلى عنايته باللغة وتفهم أسرارها ـ التخصص فى آدابها وبعض علومها .

ولعل السر فى ذلك راجع إلى أن الأول جامد على درس أساليبها عاكف على ألفاظها ، والثانى مجدد في أساليبها متصرف بفنون القول فيها (١)

---

(١) ولقد كان المتنبي — إلى شاعريته الفذة — عالما لغويا كبيرا. قالوا : « وكان يكثر من نقل اللغة والاطلاع على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شىء إلا استشهد له . »

وإن نظرة تلقيها على ديوان المتنبى ونظرة أخرى تلقيها على كل ما ألفه ابن خالويه لتكفيان لإقناعك بهذا الرأى .

فالمتنبى — فى ديوانه — متفنن ماهر وشاعر مبدع خلاق ، يطالعك بأبهج الصور وأروع المعانى .

أما ابن خالويه فلا ترى — فى مؤلفاته — إلا طول الدرس وقوة الصبر والجلد على تدوين كتاب « ليس فى كلام العرب » أو كتاب « إعراب ثلاثين سورة من القرآن [١] » أو كتاب « المقصور والممدود » أو كتاب « المذكر والمؤنث » أو « الألفات» أو «شرح مقصورة ابن دريد » الخ .

فأنت تراه — فى كل تأليفه — متبعاً لامبتدعا ، ومصنفاً لامبتكراً ، وشارحا لامنشئاً .

ولعل خير ماقرأناه من شعره هو قوله :

---

(١) هو كتاب القراءات .

إذا لم يكن صدر المجالس سيدا

فلا خـــير فيمن صدرته المجالس

وكم قائل : « مالى رأيتك راجلا »

فقلت له : « من أجـل أنك فارس

وهو — كما ترى — شعر ، كل جماله أن به مقابلة طريفة ونكته مستملحة . وهو — بعد ذلك — إذا لم تعده شعرا عاديا ، فلن تسمو به إلى شعر الفحول[1]

وما أصدق المعرى — فى مثل هذا الصدد — حين يقول:

تساور فحل الشعر أو ليث غابه

— سفاها — وأنت الناقة العُشَرَاء

---

(١) ومما اختاره له صاحب اليتيمة من الشعر قوله — فى وصف برد همدان — وفيه من التكلف وضعف الصياغة ما فيه — :

«اذا همدان اعتارها القر وانقضى — برغمك — أيلول وانت مقيم

فعينك عمشـــاء وانفك سائل و وجهك مسود البياض بهيم

وانت اسير البرد تمشى بعلة على السيف تحبو - مرة - وتقوم

بلاد — إذا ما الصيف أقبل — جنة ولكنها - عند الشتاء - جحيم»

واذا كان هذا من مختار شعره فما ندرى كيف يكون مرذوله وغثه بعد ذلك ! وما نحسب القارئ فى حاجة الى تنبيهه الى ما فى هذا الشعر من فساد الذوق اذ يخاطبه بقوله « فعينك عمشاء » الى اخر هذه الدعوات التى تدعو الله ان لا يجيب صاحبها الى تحقيقها .

وانظر الى نحوى يصرف كلمة عمشاء فى شعر لا يستحق عناء سماعه فضلا عن تكلف نظمه !

وأنَّي للعالم اللغوى أن يتسامى إلى منافسة فحول الشعر!
ولقد كان خيرا لابن خالويه لو وقف عند حده ولم يرهق
نفسه بحسد المتنبي والتطلع إلى منافسته، حتى لا ينطبق عليه
قول المتنبى :

« وما كمد الحساد شيء قصدته
ولكنه من يزحم البحر يغرق »

***

وإنا لنرى من الحق علينا أن نقرر قبل أن نختم هذه
الكلمة — إجلالنا لعبقرية المتنبي وإعجابنا بنبوغ أبي فراس
وتقديرنا لجهود ابن خالويه . وما كان أجدر هؤلاء أن
يكونوا يدا واحدة وأن يتعاونوا جميعا فى خدمة الأدب ،
ولكنها شهوات الأحقاد والأنانية والحسد تأبى إلا أن
تُنسى المعاصر حسنات معاصره وتجعل من مثل أبى فراس
والمتنبي خصمين وهما أجدر ان يكونا أخوين وصديقين .
ومن يدرى ، فلعل المتنبي ـ لو تأخر به الزمن ـ لكان من

المعجبين بشعر أبي فراس، ولو تقدم به الزمن لكان أبو فراس من المفتونين بشعره، كما فتن أبو العلاء المعرى بالمتنبي وأشاد بفضله وعنى بشرح ديوانه .

ومن يدرى ماذا كان يقوله أبو العلاء عن المتنبي — معاصرا له — رغم مانعرفه فى أبي العلاء من حب الإنصاف والحرص على الحقيقة .

* * *

ولا نزال نرى من أعلام عصرنا الحالى وكبار أدبائه من يمثل لناهذه المآسى إلى اليوم

وهكذا يأبى التاريخ إلا أن يعيد نفسه ويحقق قول أبى العلاء :

« ألا إنما الأيام أبناء واحد
وهــذى الليالى كلها أَخَوَاتُ
فلا تطلبنْ من عند يوم وليلة
خلافَ الذى مرت به السنوات[1] »

---

(١) نشرت بمقتطف يناير سنة ١٩٣٠ .

# (٤)

# فى مدينة السلام

## بين المتنبي والحاتمى

« ولما قدم ابوالطيب — من مصر — إلى بغداد وترفع عن مدح المهلبى الوزير — ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك — شق ذلك على المهلبى ، فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه — وفيهم الحجاج وابن سكرة الهاشمى والحاتمى — وأسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به وتنادروا عليه . فلم يجبهم ولم يفكر فيهم . » « الثعالبى »

# (١)

## تمهيد[1]

ورد المتنبي مدينة السلام بعد أن روّعته التجارب القاسية ولقي ما لقي من عنت الزمان وتقلبات الأيام ومعاداة الرجال . ولقد ترك سيف الدولة الذي كان يقول فيه :

« أسير إلى أقطاعه ، في ثيابه ،

على طرفه ، من داره ، بحسامه . »

وحسب أنه قد أمن كيد الحساد بعد أن ترك سيف الدولة فإذا به يرى — حيثما ذهب — حساداً ومنافسين ومتطوعين لإيذائه والزراية عليه والكيد له . فقد لقي أمامه في بلاط كافور — بدل أبي فراس وابن خالويه — ابن حنزابة وزير كافور[2] وهو من تعرف مكانةً وخطراً ، ثم هرب من مصر — بعد أن هرب من حلب — فراراً من انتقام كافور ووزيره ، وهجاهما بعد ذلك أشنع هجاء ، فمن قوله في مقصورته :

---

(١) نشرت بمقتطف شهر فبراير سنة ١٩٣٠

(٢) هو ابو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة

وماذا بمصر من المضحكات

ولكنه ضحك كالبكا

بها نبطي[1] من أهل السواد

يدرس أنساب أهل العلا

وأسود [2] مشفره نصفه

يقال له : « أنت بدر الدجا » [3]

وقد شعر المتنبي بخطئه وظهرت حسرته اللاذعة — بعد أن خيب كافور آماله — وتجلى ذلك فى قوله :

« وفارقت خير الناس قاصد شرهم

وأكرمهم طرًا لألأمهم طرًا

---

( ١ ) يعنى ابن حنزابه

( ٢ ) يعنى كافور الاخشيدى

( ٣ ) قالوا : وكان المتنبي قد مدح ابن حنزابة بقصيدته التى أولها :

« باد هواك ، صبرت أم لم تصبرا » وجعلها موسومة باسمه : لتكون احدى قوافيها « جعفرا » وفيها قوله :

صغت السوار لأى كف بشرت          بابن الفرات ، وأى عبد كبرا

قالوا : « فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده اياها ، ثم مدح بها ابن العميد »

فعاقبني المخصيُّ بالغدر ـ جازيا ـ
لأنْ رحيلى كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأى ، لم أعن
بحزم ولا استصحبت فى وجهتي حِجْرا »

✲ ✲ ✲

فلما ورد مدينة السلام ضوعفت خيبته ويأسه ، ورأى من الخصومة والاحقاد مالم يكن فى حسبانه، ووجد أمامه خصما عظيم الخطر عنيف الخصومة واللدد . فقد بلى بخصومة المهلبي ، بعد أن نجا من خصومة ابن حنزابه ، وكلاهما وزير نافذ الكلمة لا يستهان بعداوته وغضبه .

وكان السبب فى هذه العداوة ـ كما أسلفنا ـ أنَّ المتنبي ترفَّعَ عن مدح المهلَّبي ، فأغرى به الشعراء وأثارهم عليه وهكذا فرَّ المتنبي من مصر الى مدينة السلام وهو يحسب أنه قد أصبح بمأمن من المنافسة والحسد ، فإذا هو فى بلد الخصومة واللدد ، وإذا الوزير المهلبي ساخط عليه يغرى الشعراء بشتمه ويوعز إلى الأدباء بثلبه وتنقص قدره، وإذا معز

الدولة ـ سيد بغداد ومولاها ـ حانق عليه، وإذا الأذناب يتلمسون إرضاء سادتهم بكل وسيلة ويتهافتون على ذم عدوهم وثلبه بكل أسلوب .

وإذا بنا نرى الحاتمي [1] — بطل هـذه المناظرة — يحتال جاهداً للقاء المتنبي وإرواء غلته، ويتلمس مناظرته، فاذا أعجزه ذلك ذهب إليه في بيته، لا ليناظره أو يناقشه بل ليشتمه ويلعنه ويسفهه، ثم يعود إلى سادته زاعماً أنه قهر خصمهم اللدود وأربى على الغاية في تحقيره وتصغير شأنه . ورحم الله علقمة إذ يقول :

« فإنك لم يفخر عليك كفاخر
ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلَّب »

## كيف كانت المناظرة

ليس لدينا الا مصدر واحد نستقي منه أخبار هـذه المناظرة وهو ما كتبه الحاتمي نفسه عنها، وليس هـذا بالمصدر الثقة الذي يؤخذ به ويعول عليه وتقبل دعاواه

---

(١) هو أبو علي محمد بن الحسن المظفر المعروف بالحاتمي وهو كاتب لغوي مشهور .

قضايامسلمة،لأنه ـ كالمصدر الذي استقينا منه رواية المناظرة التي حدثت بين الهمذاني والخوارزمي ـ وهي رواية خصم عن خصمه .

على أن الحاتمي يناقض نفسه في روايته — أكثر من مرة — فهو يحاول أن يقنعنا بأن كبرياء المتنبي عليه هي التي حملته على شتمه ، بينما يروي لنا أنه لم يذهب الى المتنبي ولم يشتمه الا إرضاء للوزير المهلبي ومعز الدولة معاً . وهو يعير المتنبي بأنه قابله بلباس فاخر بينما يفخر عليه بأن له بغلة فاخرة وعبيداً وغلماناً الخ .

وهو يملأ رسالته بالأسجاع الفاترة ويكيل لنفسه المديح كيلا ويذهب في الغرور الى أبعد مما ذهب إليه المتنبي حتى ليذكرنا بقول ابن الرومي :

« عذرنا النخل في ابداء شوك
يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أضحى
له شـــــوك ـ بلا ثمر نراه . »

فإننا إذا استطعنا أن نسيغ غرور المتنبي، لم نستطع — بحال ما — أن نسيغ غرور هذا المتمادح المتعاجب بنفسه.

ورواية الحاتمى على ما فيها من التناقض تكاد تكون — لما فيها من الإغراق — مستحيلة الوقوع . فهو يزعم لنا أنه هزم المتنبي — على طول الخط — إن صح هذا التعبير ، وأن المتنبى لم يوفق فى ردو احد يفند به مزعما واحدا من مزاعمه، وأنه كان لا ينشده بيتاً من غُرَرِه الا زيَّفَه الحاتمىُّ ورده الى أصله واستشهد بشعر من سبقوا المتنبى الى معناه .

***

ونحن إذا صدقنا ما يرويه الحاتمي من أنه ذكر للمتنبى كثيرا من سقطاته ومرذول شعره ، لم نستطع — بعد ذلك — أن نصدق بقية مايرويه لنا من أنه زيَّف كل ما استشهد به المتنبى من غرره ، وأنه ردَّه الى مصادره ارتجالا . وما كان أجدر الحاتمي أن يصدقنا القول،

فيقرر لنا أنه كتب رسالته هـذه فى نقد المتنبى. وأجهد فى كتابتها قريحته وضمنها خلاصة آرائه صفوة معارفه ، بدل أن يزعم لنا أنه ارتجلها فى جلسة واحدة .

وهذه الدعوى تذكرنا بما يزعمه لنـا بعض زعماء الشعر فى عصرنا من انهُ يرتجل كلّ قصائده ـ وبعضها يبلغ مائتى بيت أحياناً ـ ولو صحّ زعمه لرأينا له ولو قصيدة واحدة غير مرتجلة تفوق كل هذه القصائد .

## الرسالة الحاتمية

وإنك لترى حقد الحاتمى وغيظه على المتنبى واضحين في قوله من رسالته[1] :

« لما ورد احمد ابن الحسين المتنبى مدينه السـلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير أبى محمد المهلبي ، التحف برداء الـكبر وأذال ذيول التيه ، ونأى بجانبه استكباراً وثنى عطفيه جبرية وازوراراً » قال : « فـكان لا يلاقى احداً

(١) اسمها الرسالة الحاتمية ، او الرسالة الموضحة كما سماها الحاتمى نفسه .

« وساء معز الدولة « أحمد بن بويه » المقدم ذكره — وقد صورت حاله — أن يرد حضرته وهى دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك — رجل صدر عن حضرة عدوه سيف الدولة بن حمدان — وكان عدواً مبايناً لمعز الدولة — فلا يلقى أحداً بمملكته يساويه فى صناعته، وهو ذو النفس الأبية والعزيمة الكردية والهمة التي لو همت بالدهر لما تصرفت بالأحرار صروفه ولا دارت عليهم دوائره »

ثم قال :

« وتخيل الوزير المهلبي — رجما بالغيب — أن أحداً لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفواً له ولا يضطلع بأعبائه فضلا عن التعلق بشىء من معانيه.

وللرؤساء مذاهب فى تعظيم من يعظمونه وتفخيم من يفخمونه وتكرمة من يراعونه ويكرمونه، وربما حالت بهم الحال وأوشكوا عن هذه الخليقة الانتقال، وتلك صورة الوزير المهلبي فى عوده عن رأيه هذا فيه. »

هكذا يصور لنا الحاتمى أنهُ هتك ستر المتنبى وأبان

ضعفه وأقنع الوزير المهلبي أن المتنبي لا قيمة له ولا خطر، وأنهم أكبروا من شأنه وهو صغير، وتهيبوه وهو ضعيف حقير، وأنهُ — كما يقول الحاتمي في رسالته — « لم يكن فيهِ مزية يتميز بها عن الهجين الجذع من أبناء الأدب، فضلا عن العتيق القارح إلا الشعر . »

إلى أن يقول :

« فنهدت له متتبعاً عواره ومقلماً أظفاره ومذيعاً أسراره، وناشراً مطاويه . »

ألا ترى إلى هذا الجبار القادر كيف قلم أظفار المتنبي وأذاع أسراره وتتبع عواره ؟

ثم يقول في رسالته إنه كان متحيناً أن تجمعهما دار يشار إلى ربها ليجريا معاً في مضمار يعرف به السابق من المسبوق واللاحق من المقصر عن اللحوق .

وهنا يذكرنا عما فعله بديع الزمان الهمذاني من التحكك بالخوارزمي [1] رغبة في الظهور عليه لما في ذلك من التنويه به.

---

(١) ارجع الى « ص ٢٢ »

ثم يقول لنا متمدحاً بفضائله وسجاياه الباهرة :—

« وكنت — إذ ذاك — ذا سحاب مدرار وزند فى كل فضيلة وار ، وطبع يناسب العقار إذا وشيت بالحباب ووشت بها سائر الأكواب »

ألا تصدق الآن أن هذا النابغة الفذ ، يغلب المتنبى ، بعد أن حدثك عن نفسه بأنه كان ذا سحاب مدرار وزند فى كل فضيلة وار ؟ »

نعم فى كل فضيلة من الفضائل قاطبة .

ثم يقول لنا فى رسالته : « هذا وغدير الصبا صاف ، ورداؤه ضاف، وديباجة العيش غضة، وأرواحه معتلة، وغمائمه منهلّة ، وللشبيبة شِرّة الخ »

ولعلك ترى من ذلك أنه لم يكتب هـذه القصة إلا بعد أن مات المتنبى بزمن طويل ، فقد حدثت هذه المناظرة حوالى عام ٣٥٢ هـ . ومات المتنبي سنة ٣٥٤، وليس هذا بالزمن الذى ينتقل فيه الحاتمى من عهد الصبا إلى عهد الكهولة أو الشيخوخة .

ثم يحدثنا الحاتمى أنه — بعد أن أخفق فى مقابلة المتنبي — ذهب إلى بيته ليفرغ جعبة أحقاده ويشفى حزازات نفسه فيقول: «حتى إذا عدت إلى اجتماعنا عوادمن الأيام قصدت مستقره، وتحتي بغلة سفواء[1] تنظر عن عيني باز وتتشوّف بمثل قادمتى نسر، وهى مركب رائع، وكأننى كوكب وقاد من تحته غمامة يقتادها زمام الجنوب، وبين يدى عدة من الغلمان يتهافتون تهافت فريد الدر عن أسلاكه.»

ولما انتهى من المباهاة والإدلال ببغلته السفواء التى تنظر عن عينى باز وتتشوف بمثل قادمتى نسر، وأقنعنا بأنها مركب رائع وأنه كان عليها كالكوكب الوقاد من تحته غمامة يقتادها زمام الجنوب وهكذا إلى آخر هذه الأوصاف المضحكة، بدأ يقص علينا مدهوشاً كيف رأى المتنبى هذه العظمة من غير أن ينخلع لها قلبه أو يطير شعاعاً ؟ قال:

« ولم أورد هذا متعجباً ولا متكثراً بذكره، بل ذكرته لأن أبا الطيب شاهد جميعه — فى الحال — ولم ترعه

---

(١) سريعة المر كالريح

روعته ، ولا استعطفه زبرجه ، ولا زاده إلا عجباً بنفسه وإعراضاً عنى بوجهه . »

وقد كان المتنبى جديراً — بعد أن رأى هذه الأبهة وتلك العظمة ـ أن ينحنى إجلالا لصاحبها وتعظيما لشأنه ، ولكنه ـ لكبريائه ـ لم يفعل ، بل أشاح بوجهه عنه ـ كما يقول الحاتمى — ونهض من مجلسه حين استؤذن له عليه ودخل بيتاً إلى جانبه ، ونزل الحاتمى عن بغلته — كما يقول — والمتنبي يراه ، ودخل إلى مكانه ، فلما خرج المتنبي نهض الحاتمي اليه . قال الحاتمى :

«فوفيته بحق السلام ـ غير مشاح له فى ذلك ـ وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لى عند موافاتى . »

وهكذا يظل يقص علينا الحاتمى من أمثال هذه التفاصيل التافهة حتى يضجرنا إضجاراً ، ثم يقول :

« ولبس ـ المتنبي ـ سبع أقبية ملونة وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس . »

وإذا صح قول الحاتمي كان دليلا إما على سخف المتنبي

فى العناية بمثل هذه الاشياء التافهة ، أو دليلا على رغبته فى أن يكيل للحاتمى بنفس الصاع ، ويظهر له أنه — فى ذلك أيضاً — لا يقل عنه ، ولكل مقام مقال ولكل قوم أسلوب بعينه لا يفهمون إلا به !

***

ثم يشكو الحاتمى من إعراض المتنبى عنه إذ كان — كما يقول — لا يعيره طرفاً ولا يكلمه حرفاً .

قال الحاتمى :

« وكدت أتميز غيظاً ، وأقبلت أسخف رأيى فى قصده وأعاتب نفسي في التوجه إلى مثله ، وهو مقبل على تكبره ، ملتفت إلى الجماعة التى بين يديه ، وكل واحد منهم يومئ إليه ويوحي بطرفه ويشير إلى مكانى ويوقظه من سنة جهله ، فما يزداد إلا ازوراراً ونفاراً ، جرياً على شاكلة خلقه . »

# بين المتنبى والحاتمى(١)



« يشقى رجال ، ويشقى آخرون بهم
ويسعد الله أقواما بأقوام »

---

ولقد اضطرب الحاتمي فى روايته اضطرابا عجيبا ، ولم يكد يروى لنا شيئاً إلا روى نقيضه ، حتى أذكرنا بالحكاية المعروفة التى كانوا يقصونها علينا ، وخلاصتها أن سيدة استعارت من جارتها مكيالا ولم ترده إليها .

فلما ألحفت عليها أعادت إليها مكيالا قديما فقالت لها جارتها : « ليس هذا مكيالى الذى استعرته منى »

فأجابتها مغضبة :

« لستِ محقة فيما تزعمين ، وما أجدرنى أن أصارحك القول ، فلتعلمى أولا أن هذا أكبر من مكيالك ، ولتعلمى ثانياً أن هذا المكيال جديد على حين مكيالك قديم ، ثم لتعلمى ثالثا أنكِ لم تعطينى مكيالا البتة ! »

---

(١) نشرت بمقتطف شهر مارس سنة ١٩٣٠ .

وهكذا يأبى الحاتمى إلا أن يقنعنا فى رسالته بمثل هذا المنطق المضطرب العقيم، فهو يقص علينا أنه رحب بالمتنبي ووفاه حق السلام « غير مشاح له فى القيام » حينما يقص علينا أيضاً أنه ما كاد يلقى المتنبي حتى تمثل بقول الشاعر :

« وفى الممشى إليك علىَّ عار
ولكن الهوى منع القرارا . »

فتمثل المتنبي بقول الآخر :

« يشقى رجال، ويشقى آخرون بهم .
ويسعد الله أقواما بأقوام
وليس رزق الفتى من فضل حيلته
لكن جدود وأرزاق بأقسام
كالصيد يحرمه الرامى المجيد، وقد
يرمي فيحرزه من ليس بالرامى »

أرأيت خيراً من هذه التحية وأدل منها على تبادل الإجلال والمحبة ؟ (١)

---

(١) اراد الحاتمى أن يقنعنا فى رسالته بكثير من المتناقضات منها :
أنه ذهب الى المتنبي فى بيته متقما لتعاليمه على الوزير المهلبى وعضد الدولة، بعد ان أعيته الحيل

ويخبرنا الحاتمى أنه جلس مستوفزاً وجاس المتنبى محتفزا ويقول: «وأعرض عني لاهياً، وأعرضت عنه ساهياً، أؤنب نفسى فيقصده وأستخف رأيها فى تكلف ملاقاته.»

والعجيب أن يعجب الحاتمي ـ بعد ذلك ـ من إعراض المتنبي عنه وإقباله على غيره، وإبائه — كما يقول — «إلا ازورارا، وعتوًا واستكباراً.»

ونحسب أن المتنبى كان قد سمع من بعض جلسائه بغرور الحاتمى وتحفزه لتحقيره والزراية عليه، ولو أنه لم يسمع بشىء من ذلك لكان فى هذه المقابلة ما يبرر إعراضه عنه.

ولعله رأى على أسارير وجهه نزوعه إلى الشر وتحفزه

---

فى تلمس لقائه جاهدا، وأنه مع — هذا السعى الحثيث الى لقاء المتنبي — كان يحتقره ولا يراه جديرا بالاهتمام.

وأنه بدأ المتنبي بالاحترام والتحقير — فى وقت واحد — وانه كان البادئ بالهجوم على المتنبي ولم يكن له مع ذلك يد فى ذلك الهجوم لان المتنبى هو البادىء بمهاجمته. وقد لجأ الحاتمى الى هذا الاسلوب ليضمن شيئين: أولهما ان يؤكد لسادته انه تطوع بمهاجمة المتنبى وانتقاصه ارضاء لهم، وثانيها أن يتظاهر للناس بان المتنبي كان الباغى عليه ولولا ذلك ما هاجمه الحاتمى. ولاسبيل الى الجمع بين الامرين الا اذا لجأنا الى منطق صاحبة المكيال!

للمخاصمة ، والمتنبي لم ينس بعد ما جرته عليه معاداة الرجال من المصائب والأهوال ، ولم ينس ماجره عليه احتقاره ابن خالويه وأضرابه.

والمتنبي - كما ترى - غريب الدار ، ولعله أدرك أن الحاتمي - كابن خالويه - يد متحفزة للبطش به مؤيدة بساعدي عضد الدولة والوزير المهلبي ، فحاول المتنبي أن يجامله ، ورأى كما يقول الحاتمي : « أن يثني جانبه إليه ويقبل بعض الإقبال عليه. » فقال له « ايش خبرك »

ولكنه ما كاد ينطق بها حتى انفجر بركان حقده الكمين ، وانطلق في سبابه انطلاقا ، وأدى بذلك الرسالة التي تطوع بها — أو على الأصح — التي طلب اليه أن يؤديها ، فقال للمتنبي :

« بخير أنا ، لولا ما جنيته على نفسي من قصدك ، ووسمت بهِ قدري من ميسم الذل بزيارتك ، وجشمت رأيي من السعي إلى مثلك ممن لم تهذبه تجربة ولا أدبته بصيرة . »

قال الحاتمي : ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى قرارة

الوادى وقلت لهُ :

« أبن لى ممّ تيهك وخيلاؤك؟ وعجبك وكبرياؤك ؟ وما الذى يوجب ما أنت عليه من الذهاب بنفسك والرمى بهمتك إلى حيث يقصر عنه باعك، ولا تطول اليه ذراعك ؟ هل ههنا نسب انتسبت إلى المجد به ؟ أو شرف علقت بأذياله ؟ أو سلطان تسلطت بعزه ؟ أو علم تقع الاشارة إليك به ؟ إنك لو قدرت نفسك بقدرها ، أو وزنتها بميزانها ولم يذهب بك التيه مذهباً ، لما عدوت أن تكون شاعراً مكتسباً . »

ويحدثنا الحاتمى — وهو الراوية الثقة كما رأيت ! — أن المتنبي لم يكد يسمع منه ذلك حتى امتقع لونه وغص بريقه ، وجعل يلين فى الاعتذار ويرغب فى الصفح والاغتفار . »

***

وما كان أحوجنا إلى سماع رواية المتنبي عن سبب اعتذاره اليه — إن صح ما يزعمه الحاتمى — لنتعرف هل كان اعتذاره

إليه لأنه اقتنع بهذه الحجج الدامغة أم لما رآه على أساريره من أمارات الاضطراب والخبل ، فإن من الناس من يحاجّك بغير المنطق وترى فى أساريره تحفزاً للفتك بك إذا لم تقره على كل ما يقول وتذعن لما يمليه عليك من الآراء إذعاناً ؟

على أننا نلمح — من رواية الحاتمي — أن المتنبي حاول جهده أن يصرفه عنه ويتخلص من شره ، ويبتعد عن لجاجة لا يدرى مغبتها ولا يعرف الى أين ينتهى مداها ! فاعتذر إليه بأنه لم يتعمد الإساءة اليه بإعراضه عنه ، وأكد له أنه لم يتثبته ، ولكن الحاتمي أبى إلا أن يتمم الرسالة التى جاء ليؤديها اليه — غير منتقصة ولا مبتورة — فقال له :

« يا هذا ، إن قصدك شريف فى نسبه — يعنى نفسه — تجاهلت نسبه ! أو عظيم فى أدبه صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه خفضت منزلته ! فهل المجد تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لكنك مددت الكبر ستراً على نقصك وضربته رواقاً حائلا دون مباحثتك ! »

وما زال الحاتمى يؤكد لنا أن المتنبى تهيبه — بعد أن

علم أنه شريف فى نسبه عظيم فى أدبه متقدم عند سلطانه — وأخذت الجماعة تترضاه ضارعة إليه أن يصفح عن ذلة المتنبى ويغتفر له تقصيره، وأن المتنبى ظل يؤكد له مقسما إنه لم يعرفه معرفة ينتهز معها الفرصة فى قضاء حقه، والحاتمى يقول له :

« ألم استأذن عليك باسمى ونسبى ؟ أما كان فى هذه الجماعة من كان يعرفنى لو كنت جهلت، وهب أن ذلك كذلك ألم تر شارتى ؟ أما شاهدت ملبسى ؟ أما شممت نشر عطرى ؟ ألم أتميز فى نفسك عن غيرى ؟ ألم تر تحتى بغلة يعلوها مركب صقيل وبين يدى عدة غلمان ؟ »

الى آخر هذه العبارات التي تدل على اضطراب وخبل أو على حماقة نادرة تتضاءل أمامها كل حماقه .

وكأنما شعر المتنبى أن الحاتمى هذا لم يزره الا مستثيرا فقد طالما ألف من طلاب الشهرة التحكك به، أو موعزاً اليه من قبل سادته فقد طالما عانى المتنبى وأمثاله عنت

هؤلاء الأذناب وسلاطتهم . ولعله سمع أنه كان يشهر به فى مجالسه الخاصة أو بلغه عنه مايقرب من ذلك .

* * *

ولما اطمأن الحاتمى الى اقتناعنا بانهزام المتنبى أمامه ، أخذ يحدثنا عن تجاوزه ـ بعد ذلك ـ عن إساءته تجاوز القادرين ، ويقص علينا كيف بدأت المناظرة بينهما وكيف هزم المتنبى هزيمة منكرة ، وكيف رد الحاتمى كل بيت من أبياته إلى مصدره الذى سرقه منه وأقنعه بعيوبه وسخفه ، فكان المتنبى لايذكر له بيتاً من غرره حتى يرده الحاتمي إلى أصله ارتجالا .

* * *

وقد أحسن ابن خلكان كل الإحسان فى كلمته التى علق بها على هذه المناظرة إذ قال :

« فإن كان كما ذكر أنه أبان له جميعها فى ذلك المجلس فما هذا إلا اطلاع عظيم وشهادة لصاحبها بالفضل الباهر مع سرعة الاستحضار . »

وهذا الارتياب يدل على يقظة بارعة طالما ألفناها من

ابن خلكان فى تراجم من تناولهم بالذكر فى كتابه الحافل ، فقد لمح تلميحاً دقيقاً لما يساوره من الشك فى رواية الحاتمى عن نفسه واستكثر عليه أن يرد كل بيت الى مصدره بمثل هذه السرعة !

* * *

ولو افترضنا صدق الحاتمى فى روايته لاستدللنا بذلك على أن عناية الأدباء بدرس شعر المتنبى فى دار السلام قد بلغت أقصاها وأنهم عنوا بتتبع مآخذه ، فلم يجد الحاتمي من الصعب عليه أن يظهر للمتنبي أمثال هذه المآخذ الشائعة ، ثم زاد على ماحدث وغالى فى روايته بعد ذلك وأضاف — إلى ما قال — مالم يقل حتى أتم رسالته .

## مثال من انتقاد الحاتمى

وأكثر انتقاد الحاتمى تافه لاقيمة له ، وجُلُّه من الانتقادات المبهمة الغامضة ، وقد أخذ عليه عيوباً لا يسلم منها شاعر قديماً كان أو حديثاً ، عربياً كان أو غربياً .

وليس أيسر على الناقد — إذا شاء أن يعدد مساوئ

شاعر — من ذكر عدة هفوات وقع فيها . وليس يسلم الذهن الإنساني ـ مهما سما ـ من الإسفاف أحياناً ، والشعر — كما يقول ابن الرومي — كالشجر :

« رُكِّبَ فيه اللِّحاء والخشب اليا
بس والشوك بينه الثمر
فليعذر الناس من أساء ومن قصَّ
ر في الشعر إنه بشر
مطلبه كالمغاص في درك اللج
ـة من دون دُرِّها الخطر . »

***

ولا ندري ماذا كرِهَ الحاتمي من قول المتنبي في هجاء ابن كيلغ :

« واذا أشار محدثاً فكأنه
قرد يقهقه أو عجوز تلطم »

فقد قال للمتنبي : « أما كان في أفانين الهجاء التي تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الذي ينفر

هذا كلام يرتاح اليه كل سمع ويأنس به كل طبع » مادام يأبى الحاتمى إلا أن يتخذ من سمعه مقياساً لكل سمع ويجعل من طبعه نموذجا لكل طبع .

ونحن لا نقول إن كل نقد الحاتمى تافه ، فقد ذكر للمتنبي عيوباً حقيقية كان المتنبي جديراً ألا يقع فى مثلها ، ولكننا نرى أن أمثال هذه العيوب لا يسلم منها شاعر كائناً من كان وبالغاً ما بلغ من السمو والرفعة .

والمتنبي كالبنية الشامخة المدعمة الأسس لا ينقص من قيمتها أن يتلمس فيها المتعنت بعض هفوات تافهة ، ولا يعيبها أن فى إحدى غرفها لوحاً زجاجياً مكسوراً .

وقد عير الحاتمى المتنبي بتقصيره عن أبى نواس فى بعض معانيه ، ولو أن الحاتمى كان معاصرا لأبى نواس وأغرى به — كما أغرى بالمتنبي — لعيره بأنه قصر عن جرير أو الأخطل مثلا ، ولو كان معاصراً لهذين لعيرهما بتقصيرهما عن غيرهما ممن تقدمهما . والشاعر — كالسياسى — كثيراً ما يعيره خصومه

بالتقصير عن سلفه حتى إذا مات عيروا من يخلفه بالتقصير عنه ، بعد أن كانوا يعيرونه بالتقصير في حياته .

***

ورسالة الحاتمي طويلة لا تتسع هذه الإلمامة لمناقشتها ، فلنقتصر على مناقشة المحور الذى دارت عليه تلك المناقشة ، وهو الأساس الذى يعتمد عليه أكثر نقدة الشعر العربى خاصة ، فقد حاول الحاتمى أن يظهر المتنبي بمظهر اللص وأن ينبه إلى معانيه المسروقة، والسَّرَق آخر حيلة يلجأ اليها النقاد لهدم الشاعر - بعد أن تعييهم الحيل - وقد رمي بهذه النقيصة كل شاعر قديم ومحدث. وعندنا أن أكثر المعانى الجوهرية مشترك بين الناس — على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم — وانك لو حاولت أن تجد لأكثر المعانى أشباهاً لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه - بعد عام أو عامين - فى شعر قديم أو حديث عربى أو غربى . وقديما قال عنترة :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

وذلك أن النفس الإنسانية — على اختلاف نزعاتها وشتى إحساسها وشعورها — تكاد لاتختلف فى الشعور بأمهات المعانى ، وثمة تتوارد الخواطر . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان فى أداء هذه المعانى، وروعة الأداء وحسن التعبير عن دقائقها وظلالها والإبداع فى صوغ الخوالج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذى تحلق فيه شاعريته وعرض معانيه فى أبهى صورها وأجمل حللها .

* * *

ولنضرب للقارئ مثلا واحداً من أمثلة عدة لايتسع لها المقام :

لعل كثيرا من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن مايضر واحداً قد ينفع الآخر .

هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء فى صوغه فظهرت فى ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والإبداع .

وقد صاغه المتنبي فى أبسط صوره فقال :

« مصـائب قوم عند قوم فوائد. »

وتناوله ابن الرومى من قبله فجلَّاه فى صورة أخرى وهى قوله :

« فاهجنى إنمـا هجاؤك عندى
ضحـكات تزيد فى السراء
ومحال أن يسعد السعداء الد
هر إلا بشقوة الأشـقياء »

فاما طرقه المعرى جلاه فى أبدع صُوَرِهِ وأجملها فقال:

« وسخط الظباء بمـا نالهـا
تولد منـــــه رضى الحابل »

فمثل لنا — من ذلك المعنى الشائع المطروق — صورة رائعة دقيقةمشرقة بالحياة،وأظهرلنا ـ بريشة المصور الفطن ـ ظبية يوقعها القدر وسوء الحظ ونكد الطالع فى حبالة القانص فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصيادا يراها — في هذه الحال من الألم والسخط — فيرى.

فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلا .

✡ ✡ ✡

ولقد أحسن الجرجانى[1] حين قال من فصل طويل نحب أن يرجع اليه القارئ فى كتابه :

« وقد يتفاضل مدعو هذه المعانى بحسب مراتبهم — فتشترك الجماعة فى الشىء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى إليها — دون غيره — فيريك المبتذل فى صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجانى لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :
« ولم يبق عليك الا أن تحترس من التفريط — كما احترست من الإفراط — فلا تكن كمن يرى السَّرَق لا يتم إلا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاماً ، بل لا يعرف السارق إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن

---

(١) على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه . »

ابن أوس »[٢]

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق — أيدك الله — داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه » .

ومن أجمل ما أورده في ذلك الفصل قوله :

« ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا — ثم العصر الذى بعدنا — أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها وأتي على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها. ومتي أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه

---

( ٢ ) وحكايته كما قال الجرجانى أنه دخل على معاوية فأنشده لنفسه :

| | |
|---|---|
| «اذا انت لم تنصف اخاك وجدته | على طرف الهجران ان كان يعقل |
| ويركب حد السيف من ان تضيمه | اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل» |

فقال له معاوية : « لقد شعرت بعدى يا ابا بكر . »

ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن اوس المزنى فأنشده البيتين فقال «الم تخبرنى انهما لك » فقال: «المعنى لى واللفظ له ، وبعد فهو اخى من الرضاع وانا احق الناس بشعره .»

فى تحصيل معنى ـ يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين ـ لم يخط أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر فى محاجة البحترى لما ادعى السرق فى قوله :—

« والشعر ظهر طريق أنت راكبه
فمنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضم بين الركب منهجه
وألصق الطنب العالى على الطنب . »

***

وإنما ذكرنا هذه الكلمة لتكون أساسا يبنى عليه القارىء حكمه حين يقرأ الرسالة الحاتمية وغيرها من الرسائل التى عنى أصحابها بذكر سرقات الشعراء فيها .

ونحب أن نلفت القارىء إلى دقة « المعرى » وانتباهه

إلى هذا المعنى حين تصدى — في رسالة الغفران — لتعريف الزمان فقال :

« وقد حددته حداً ما أجدره أن يكون سُبِق إليه ، إلا أني لم أسمعه »[1]

## كلمة ختامية

ونعود إلى المتنبي والحاتمي فنقول :

إن المتنبي لم يكن ليقيم لمثل الحاتمى وزناً لا سيما بعد أن سئم المنازعات والمنافرات، و بعد أن حطم الدهر آماله فى الملك، و بعد أن تصدى لعداوة من لا يقاس الحاتمى إليهم فى علم أو أدب أو سلطان . ولكنه أراد أن يتخلص منه و يصرفه عنه بعد أن عرف أنه طالب شهرة يريد أن يتحكك به .

وليس من العجيب أن يتهافت مثل الحاتمى على المتنبى وأن يسجل له موقفا معه يحفظه له التاريخ، وحسبه أن يناظر رجلا « قد شغلت به الألسن — كما يقول ابن شرف القيروانى —

---

( ١ ) ارجع الى رسالة الغفران « ج ٢ ص ٣٢ »

وسهرت فى أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والغائص فى بحره والمفتش عن جمانه ودره وطال فيه الخلف وكثر عنه الكشف »

ولا بد للمتنبى « من شيعة تغلو فى مدحه — كما يقول القيرواني — وخوارج تتعب فى جرحه . »

وقد رأينا فى هذا الفصل أحد الخوارج الذين تعبوا فى جرح المتنبي فلم يوفقوا فى ذلك أى توفيق .

وقد حاول الحاتمى أن يسخف لنا المتنبى فلم يسخف إلا نفسه ، وأراد أن يقنعنا بغلبته عليه فوفق كل التوفيق فى أن يقنعنا بعكس ما أراد ، وأتاح لنا فرصة نادرة للفكاهة .

* * *

على أن للحاتمى شيئاً من الشعر المستملح وذوقاً أدبياً موفقاً — فى بعض الأحايين — ولكنه كان فى هذه الرسالة مخرفاً متحاملا وقد أضله الهوى والغرور .

ولا نريد أن نصفه بالكذب والادعاء فيما رواه ، فلنكتف بوصفه بالمغالاة والإغراق .

# ٥

# بين المعرى وداعى الدعاة

« علم الامام — ولا أقول بظنة —
ان الدعاة — بسعيها — تتكسب »
« ابو العلاء »

# (١)

## تمهيد

أحقاً أن داعى الدعاة لم يحفزه إلى كتابة هذه الرسائل إلى أبى العلاء إلّا قول المعرى من قصيدة لهُ فى اللزوميات :

«غدوتَ مريض العقل والدين، فالقني
لتسمع أنباء الأمور الصحائح ؟ »

وأن داعي الدعاة أراد أن يتعرف من أبى العلاء أنباء الأمور الصحائح — كما حاول أن يقنعنا بذلك فى رسائله — ليهتدى بهديه ؟ لقد حاول داعى الدعاة أن يدخل فى روعنا ذلك ، كما حاول الرواة أن يقنعونا بأن هذا البيت وحده هو السبب الذى حفزه إلى كتابتها .

على أننا جديرون أن نتساءل مستفسرين :

هل دارت بين المعرى وداعى الدعاة رسائل أخرى ـ غير هذه الرسائل ـ فقد أخبرنا بعض الرواة أن المعرى كتب إلى داعى الدعاة يقول :

« يد بخمس مئين عسجد وديت
ما بالها قطعت فى ربع دينار ؟
تناقض ما لنا إلاَّ السكوت لهُ
وأن نعوذ بمولانا من النار ! »

فكتب إليه داعى الدعاة يقول :
« عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها
ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارى . »

ثم لا يزيد الرواة على هذا الخبر المبتور شيئاً ، فلا يقولون لنا : متى كانت هذه المكاتبة ؟ وكيف اقتصرت على هذه الأبيات وخلت من عبارات المجاملة والأدب التى نراها فى بقية الرسائل التى دارت بين المعرى وداعى الدعاة ؟ وأين بقيتها إن كان لها بقية؟ وأية مناسبة دعت المعرى إلى التحرش بداعى الدعاة وهو لا يجهل خطره ومكانته الدينيه ؟ ومتى أرسل المعرى هذين البيتين ؟ أكان ذلك قبل تبادل هذه الرسائل ؟ فكيف لم يشر إليها داعي الدعاة ؟ وما باله يسأل أبا العلاء عن مذهبه ودينه ـ مستفسراً ـ بعد أن صارحهُ

المعرى بهذين البيتين؟ وما باله يطلب الهدى ممن لا هدى عنده؟ وما حاجته إلى السؤال بعد أن ظهر السر وانكشف الغطاء؟

أم كتبت بعد هذه الرسائل ؟ والرواة يخبروننا بأنها قد انتهت بموته ، فيحدثنا بعضهم أن آخر رسالة وردت من داعى الدعاة إلى المعرى لم تصل اليه لأنهُ انتقل إلى العالم الاخر - وقت وصولها — ويقول بعضهم : « بل مات بوفودها » ويقول بعضهم : « بل عقب ورودها بقليل » .

***

ولعل الأقرب إلى المعقول أن يكون داعى الدعاة قد سمع هذين البيتين من أفواه بعض الناس فى إحدى مجالسه — الخاصة أو العامة — فرد عليها حينئذ بقوله :

« عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها
ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارى »

وهو بيت — على ما فيه من ركاكة وضعف — قلق القافية متكلف الصياغة جدير أن يلحق بنظم الفقهاء . على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية مختلقة من أولها إلى

آخرها ، فقد اضطرب رواتها فيها كل الاضطراب ، فزعم بعضهم أنها حدثت بين المعرى وداعى الدعاة . وروى آخرون أنها حدثت للمعرى فى بغداد وأن فقهاء بغداد أغروا به إغراء وردوا عليه بهذا البيت . وقال آخرون : بل بعث بهذين البيتين إلى ابن حزم فأجابه عليهما بذلك البيت. وفى هذا الاضطراب ما يكفى للشك فى أمرها .

على أن أولى الرسائل التى بعث بها داعى الدعاة إلى المعرى تشعرنا بأنها كانت فاتحة المكاتبات بينهما .

## لم كتبت هـــذه الرسائل

ونعود الى السؤال الأول لنتعرف السبب الذى حفز داعى الدعاة الى مكاتبة أبي العلاء أهو الرغبة الصحيحة فى الاهتدا. بهديه — كما يزعم — أم الرغبة فى التحرش به والتشنيع عليه وكشف مستوره وتفسيقه أمام الناس ؟ ونحسب أن نظرة هادئة الى هذه الرسائل كافية فى إقناعنا بأنها كانت أقرب الى تحديه والتحرش به منها إلى الاستفادة من علمه ورأيه .

فما الذى يحفز الداعى إلى ذلك ؟ أهي غيرته الدينية ؟

كلا ، فلم يكن داعى الدعاة ممن تحفزه الغيرة الدينية إلى مهاجمة المعرى والتحرش به فقد كان داعيا للدعاة الذين قال فيهم أبو العلاء :

« علم الإمام — ولا أقول بظنة —

أن الدعاة بسعيها تتكسب »

وقد كانت دعوته من الدعوات الخطيرة وكان يسلك فى إذاعتها أخبث الطرق، فقد كان باطنياً يدعو الى المذهب الإسماعيلي وهو مذهب ينفيه الإسلام ويبرأ منه وسنوجزه فى آخر هذا الفصل .

فإذا علمنا أن الغيرة الدينية لم تكن الباعث على مهاجمة المعرى فأى باعث آخر أغرى داعى الدعاة به ؟

لقد كان أبو العلاء يمقت النفاق ويلعن المتجرين بالدين والمتكسبين بالعقيدة فيقول :

« الدين متجر ميت ، فلذاك لا

تلفيه فى الأحياء إلا كاسدا . »

وقد امتلأت كتبه — واللزوميات خاصة — بمثل هذه اللعنات ، ونحن نجتزىء من ذلك بقوله :

« طلب الخسائس ، وارتقى فى منبر
يصف الحساب لأمة ليهولها
وتراه غير مصدق بقيامة
أضحى يمثل فى النفوس ذهولها »

وقوله :

« رويدك قد غررت وأنت ندب
بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً
ويشربها — على عمد — مساء
يقول لقد غدوت بلا كساء
وفى لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ماعنه ينهي
فمن جهتين لاجهة أساء »

وقد كان داعى الدعاة من تلك الفئة التى تعيش من

الاتجار بالدين والتظاهر بالورع والتقوى ، وتتخذ من ذلك أحبولة لتصيد الأغرار .

على أن أبا العلاء لم يقتصر على ذم هذه الفئة — على وجه التعميم ، بل ذم الدعاة — على وجه التخصيص ، فقال :

« علم الإمام — ولا أقول — بظنة
ان الدعاة — بسعيها — تتكسب »

وقال فى مكان آخر من اللزوميات :

« ضاع دين الداعى فرحت تروم الد
ين عند القسيس والشماس . »

وقال فى مكان ثالث :

« لا يعجبنك داع قام فى ملإٍ
بخطبة زان معناها وطولها
فما العظات — وإن راعت — سوى حيل
من ذى مقال على ناس تحولها
وإنما رام نسواناً تزوجها
— بما افتراه — وأموالاً تموّلها »

وما نحسب مثل هذا التشنيع بالهيّن وقعه على داعى الدعاة ، وهو صاحب النفوذ العظيم .

***

فإذا تركنا ذلك جانباً ، رأينا أبا العلاء يسخر فى لزومياته أيضاً من الحاكم بأمر الله الفاطمى — بعد موته — ويهزأ علانية من القائلين بعودته ، فيقول :

« مضى « قيل مصر » إلى ربه
وخلَّى السياسة للخائل
وقالوا : « يعود » فقلنا: « يعود »
بقدرة خالقنا الآئل
إذا هبَّ زيدٌ إلى طيّء
وعاد كليب الى وائل »

إلى أن يقول :

« وتصغى إلى المين أسماعنا
وتصبو إلى زخرف القائل »

وما نحسبه إلا يعنيه حين يقول :

« لو قال سيد غضا بعثت لأمة

من عند ربى ، قال بعضهم : نعم »

وقد كرر هذا المعنى فى رسالة الغفران أكثر من مرة(١) . ولا تنس أنه عرض بميمون القدّاح فى رسالة الغفران أيضاً ، وميمون القداح هو رأس الدولة الفاطمية يغضبون له وإن كانوا لا يجهرون للناس بالانتماء اليه .

ونحسب أن فى بعض هذا ما يكفى للتحرش بأبى العلاء والكيد له والرغبة فى تفسيقه أمام الناس . ولقد حاول المعرى أن يترضى داعي الدعاة — بكل ماأوتى من قوة

---

(١) على ان المعرى لم يقتصر على ذم الحاكم وحده ، فقد ذم جميع الولاة والحكام فى مواطن كثيرة ، وكان ذلك مما يغضبهم عليه ، وقد شكا المعرى من ان الولاة كانوا يغرون بتعذيبه .

وكيف لا يغرون بتعذيبه والكيد له وهو القائل :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

والقائل :

ساس الانام شياطين مسلطة ... فى كل مصر من الوالين سلطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراً ، وهو مبطان

والقائل :

يسوسون الأمور بغير عقل ... فينفذ امرهم ويقال ساسه

وبما سلك من عبارات المجاملة وأدب الخطاب — فلم يفلح، وأبى داعى الدعاة إلا إحراجه وإذاعة رأيه على الناس جهرة، كأن له تِرَة عنده .

وقد اتخذ لهذه المناوشة قول أبي العلاء :

«غدوت مريض العقل والدين فالقني
لتسمع أنباء الأمور الصحائح . »

تكأة يبرر بها سؤاله والتظاهر بالرغبة فى الإفادة من علمه وهديه كما زعم

ولقد كان لهذه الرسائل صيت ذائع ودوى هائل . وافتن الناس فى أقوالهم ، فقال بعضهم : « إن داعى الدعاة أفحمه ثم دسَّ له السم فمات » ونحن نستبعد أن يكون داعى الدعاة قد دس له السم لأنه لم يكن يعنيه أن يفتك بالمعرى بقدر ما يعنيه أن يشنع عليه ويظهره بمظهر المكابر المائل عن الشريعة .

* * *

وقد لجأ المعرى إلى كثير من عبارات الثناء التى ألفناها

من أبى العلاء والتى نعتقد أنها كانت من أكبر الأسباب التى حببت فيه سائليه وجعلتهم له أنصاراً ، فان أكثر الناس لا يعنيهم الدفاع عن الرأى بقدر ما يعنيهم الدفاع عن أنانيتهم ، فإذا مدحت أحدهم نسى ما جاءك به ورجع عما أراده من المخاصمة واللجاج .

وقد ذكر بعض الرواة أن المعرى شرب السم ـ بعد أن فضحه داعى الدعاة وأمره بالحضور اليه والاقرار أمامه بالإسلام — وهو قول لم يؤيده دليل ، على أنه لو وقع لكان له صدى عظيم ، ولأشار إليه ولو واحد من الشعراء الذين رثوه وقد نيفوا على الثمانين شاعراً .

ويقول بعض الناس : « لعله مات غماً بعد أن ظهر أمره وهتك ستره » ونقول بدورنا : « ولعل أجله المحتوم قد وافاه حينئذ فتأول الناس هذه المصادفة شتى التأويلات» .

* * *

ومن حق القارىء أن يعرف من هو داعى الدعاة وما هو مذهبه الاسماعيلى الذى وعدنا بالاشارة اليه فى هـذا

المقال حتى يقدر تماماً شخصية مناظر أبي العلاء، ويتبين مرمى فيلسوف المعرة. أما داعي الدعاة فقد كانت رتبته تلي قاضي القضاة وكان يتزيا بزيه وكان ينوب عنه أحيانا، وهو يتناول مائة دينار كقاضي القضاة سواء بسواء.

قالوا: «وكان عالما بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنى عشر نقيبا، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد، ويحضر اليه فقهاء الدولة ولهم مكان يقال له دار العلم ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة» قالوا: «وكانت وظيفته من مفردات الدولة الفاطمية.»

## المذهب الإسماعيلي

أما المذهب الذى نصبوا أنفسهم لإذاعته والدفاع عنه فهو المذهب الإسماعيلى، ويسمون الإسماعيلية بالباطنية لأنهم يقولون «إن لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطناً ولكل تنزيل تأويلا». والإسماعيلية كما قالوا — مرتبة

على تسع منازل دعوة بعد دعوة ، وسرها محجوب عن غير أهلها ، وقد بالغوا فى تكتمه والاحتفاظ به ووضعوا لذلك نظاماً أدق من نظام الماسونية وأحفظ لاسرارها .
ومن أعجب ما فى الاسماعيلية أنها تنتهي بالاحتكام إلى العقل وترك الشرائع والديانات ظهريًا ، حينما يسلك أصحابها فى الوصول إلى هذه النتيجة كل طريق يأباها العقل ولا تلائم المنطق الصحيح ، لأنها معتمدة على المغالطات اللفظية والمشابهات العرضية والبعد عن جواهر الأشياء وحقائق معانيها وتلمس مواطن السفسطة والتهويش فيها .

والدعاة يبدؤون بالتمدح بالشريعة الاسلامية والتغني بفضائل النبي ثم يتخذون من ذلك وسيلة إلى بث آرائهم الخبيثة وبعد أن يخلد اليهم المسترشد بالثقة ويلقى إليهم بقياده يبدأون فى :

## المرتبة الأولى

بتشكيكه في دينه ويعرضون عليه طائفة من المعميات

والأسرار الغامضة ليزلزلوا بها عقيدته ويقينه الثابتين، فإذا تم لهم ذلك ضنوا عليه بكشف هذه الأسرار وفك تلك الطلاسم(١) وثمة يقول له الداعي:

« يا هذا، إن الدين لمكتوم، وإن الأكثر له منكرون و به جاهلون، ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف. وان الآفة التي نزلت بهذه الأمة وشتتت الكلمة وأورثت الاهواء المضلة هي ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها. غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة و نظروا في الامور بعقولهم واتبعوا ما حسن في رأيهم وقلدوا سِفلتهم وأطاعوا سادتهم

---

(١) و كان يقول له الداعي: « ولا تعجل فان دين الله اعلى واجل من ان يبذل لغير اهله و يجعل غرضاً للعب » ثم يأخذ عليه عهوداً و مواثيق مستندا في ذلك الى تأويل الاية « واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم و منك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. » و ما يماثلها من الايات. ثم يقولون له: « فاعطنا صفقة من يمينك وعاهدنا بالمؤكد من ايمانك و عهودك ان لاتفشي لنا سرا و لا تظاهر علينا احدا ولاتطلب لنا غيلة ولا تكتمنا نصحا ولاتوالي عدوا الخ » فاذا اعطى العهد قال له الداعي: اعطنا جعلا من مالك امام ما يكشفنا لك من الاسرار » وثمة يقدر الداعي الجعل الذي يراه — فان امتنع امسك عنه.

طلباً للدنيا التى هى بأيدى الفسقة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون فى مكايدة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته وتغيير كتاب الله ومعاندة الخلفاء الأئمة »

وهكذا إلى أن يقول :

« فإن دين محمد ليس ـ كما عرفته العامة ـ سهلا هيِّنًا بل هو صعب مستصعب وعلم خفي غامض ستره الله فى حجبه وعظم شأنه من ابتذال أسراره . فهو سرُّ الله المكتوم الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه إلا ملك مقرَّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن قلبه للتقوى »

فاذا أنس منه إقبالا نقله إلى :

## المرتبة الثانية

وفى هذه المرتبة يقرر له أن الله اختار لعباده أئمة يهدونهم إلى الصواب و يبينون لهم شريعته التي نصبهم الله لحفظها على ما أراده .

فإذا عرف ذلك نقله إلى :

## المرتبة الثالثة

فيقرر له أن الله جعل عدد الأئمة سبعة كما جعل عدد الكواكب السيارة سبعة[1] كما جعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً ومنافذ الوجه سبعاً إلى آخر هذه المغالطات . ويعدون من هؤلاء الأئمة محمد بن اسماعيل زعيم مذهبهم ، ولا يلبثون أن يقرروا له أن عنده وحده علم المستورات وبواطن الامور التى لا يمكن أن توجد عند غيره فهو وحده الذى عنده سر الله تعالى وتأويل آياته الخ

ويقررون له أن دعاته هم العارفون بذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لأنهم أخذوا عنه . فإذا أقنعوه بذلك نقلوه إلى :

## المرتبة الرابعة

وثمة يقرر له الداعى أن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لأحكامها سبعة كعدد الأئمة وعدد الكواكب الخ وأن كل واحد منهم لا بدّ له من صاحب يأخذ عنه دعوته

---

(١) وقد كانوا حينئذ لا يعرفون منها إلا سبعة

ويظاهره عليها فى حياته ثم يورثها خلفاً له وهكذا .
ويعدون من هؤلاء السبعة محمد بن اسماعيل الذى انتهى إليه علم الاولين والآخرين وعلم بواطن الامور وكشفها الخ ويؤكدون له أن الهداية والرشد فى موافقته والحيرة فى العدول عنه .

فاذا تم ذلك نقلوه إلى :

## المرتبة الخامسة

وفيها يقررون أنه لا بدّ لكل إمام قائم فى كل عصر من حجج متفرقين فى جميع الأرض وعدتهم اثنا عشر رجلا — بعدد بروج الكواكب وشهور السنة — لان الله لم يخلق هذا النظام عبثاً ، ثم ينقلونه إلى :

## المرتبة السادسة

وفيها يفسرون شرائع الإسلام - من صلاة وزكاة وحج وطهارة - بأنها رموز وفروض قد وضعت لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ،

وأن لهذه الرموز معانى غير ما تدلُّ عليه ظواهرها .
ويحقرون له أمر السمعيات ويهونون عليهِ شأنها طالبين
اليهِ أن يقتصر على الأدلة العقلية وحدها — بعد أن يحببوه
فى الفلسفة والنظر فى كلام أفلاطون وارسطو وفيثاغورس
وأضرابهم . ثم ينقلونهُ بعد ان يثقوا منه إلى :

## المرتبة السابعة

فيقررون لهُ أن الناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه،
ولا بدَّ لهُ من صاحب معهُ يعرضهُ ليكون أحدهما
الأصل والآخر هو الذى صدر عنهُ — كالعالم السفلى —
الذى صدر عنهُ ثم ينقلونه الي :

## المرتبة الثامنة

وفيها أن مُدَبّر العالم انما تقدَّم على الصادر عنه تقدم
العلة على المعلول وثمة كانت الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن

الصادر الثاني. وأن السابق ـ مع ذلك ـ لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد، فلا يقال: «هو موجود ولا معدوم، ولا قادر ولا عاجز، ولا قديم ولا محدث» بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته. وان الثانى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق. وليس معنى يوم القيامة والقرآن والثواب والعقاب ـ كما يفهمهُ العامة ـ بل هو حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب. ثم ينقلونه الى:

## المرتبة التاسعة

وهى نهاية ما يرمى اليه الداعى ـ بكل ما سلكه من ضروب السفسطة والمغالطات والثرثرة ـ وفيها يقول للمدعوّ: «ان كل ما ذكر ـ من الحدوث والأصول ـ رموز الى معانى المبادىء وتقلب الجواهر، وليس الوحى إلا صفاء النفس، وان الانبياء ينظمون الشرائع بحسب حاجة الدهماء، فهم لا يصلحون للخاصة. أما أنبياء الخاصة فهم الفلاسفة وحدهم»

ويقولون لهم: « أن وجود الامام انما هو فى العالم الروحانى اذا صرنا اليه بالمعارف والرياضة وان ظهوره الآن إنما هو ظهور أمره ونواهيه على لسان أوليائه . »

أرأيت من هو داعى الدعاة الذى يتصدى لتفسيق المعرى والتشنيع عليه باسم الدين ؟

أرأيت هذا الرجل الذى ينقض الدين من أساسه ثم يعنف المعرى جاهداً لأنه خالف الدين مخالفة صريحة حين ترك أكل اللحوم رحمة بالحيوان ؟

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا
أن الصغائر تجنى الخلد فى النار »

ألا ترى الى هذا الرجل الذى ينطبق عليه قول المعرى :

« يا ظالماً عقد اليدين مصلياً
من دون ظلمك يعقد الزنار »

وقوله :

« بخيفة الله تعبدتنـــا
وأنت عين الظالم اللاهي

تأمرنا بالزهد فى هـذه الدنـ

ـيا ، وما همك إلا هي »

٭٭٭

والآن بعد أن عرفنا حقيقة هذا الرجل فلننظر على ضوئها ما حوته الرسـائل التي دارت بينـه وبين المعرى.(١)

---

(١) نشرت بمقتطف يناير سنة ١٩٣١

# — ٢ —

## بين المعرى وداعى الدعاة(١)

« أنا ذلك المريض رأياً وعقلا ،
وقد أتيتك مستشفيا فاشفنى. »
داعى الدعاة

قلنا فى المقال السابق : إن داعى الدعاة لم يرد مناقشة أبى العلاء للاسترشاد والاستفادة منه بل قصد إلى التحرش به قصداً .ورمى الى استفزازه وإحراجه وتسوىء سمعته . وقد لخصنا المذهب الاسماعيلى الذى كان يدعو اليه داعى الدعاة ليعرف القارىء أن الغيرة الدينية كانت آخر شىء يدور بخلد داعى الدعاة ، وأن الخصومة الشخصية والمآرب السياسية هما وحدهما الحافز الأول والأخير .

وما كان المعرى ليجهل خطر داعى الدعاة ومرامي

(١) نشرت بمقتطف شهر نوفمبر سنة ١٩٣٠

كلماته ، وما كان لينسى أن فى ثنايا تواضعه الذى يذيعهُ — فى أثناء كلامه — كبرياء وسخرية دونهما كل كبرياء وسخرية. ولعل القارىء لا يخفى عليه ما يعنيه بقوله : «أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفنى » .

فهو يقرع المعرى ويسخر منهُ فى صورة المتواضع المسترشد .

وقد جامله المعرى فى رسائله بكل ما وسعه طوقه من مجاملة ، وغمره بعبارات الثناء والمديح رغبة في صد هجماته ودفعاً لشره ، فما أغنت هذه المجاملات إلا قليلا ، وكان المعرى لا يكاد يجيبه عن سؤال إلّا زَجَّ فى تضاعيف إجابته أمثال هذه الجمل :

« سيدنا الرئيس الأجل ، عصمة المؤمنين هدى الله الأمم بهدايته وسلك بهم طريق الخير على يده » « ضَوَّأ الله الظُّلَم ببصيرته وأذهب شكوك الأفئدة برأيه. » « أيد الله الحق بحياته. » « أدام الله قدرته. » « عصمة المؤمنين لا زالت القلوب معمورة بعظاته . » « لا زال يُضَوّىء قلوب

المؤمنين » « جمل الله بحياته الشريعة ونصر بحجته الملة . »

فإذا رآهُ يتمثل ببيت للمتنبي في احدى رسائله أكبر منهُ هذا وعدهُ تفضلاً منهُ على المتنبي ، وقال : « وأما تمثله ببيت أبي الطيب ، فلو بلغهُ ذلك لابتهج إذ كان مثله يتمثل بشيء مما نظمه » . ويبالغ المعرى في مجاملته والتحبب إليه فيقول : « ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججهُ خلفهُ »

وقد حاول المعرى أن يتنصل من الرد عليه — حين رأى ما يرمى اليه وتعلل — بضعفه وشيخوخته ، وأنه لو مثل في حضرة « داعى الدعاة » لعلم انهُ لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب لأن اعضاءهُ متخاذلة وقد عجز عن الصلاة قائماً وإنما يصلى قاعداً . » .

ثم يقول — : « وإني لأعجز — إذا اضطجعت — عن القعود ، فربما استعنت بإنسان فإذا هم باعانتي وبسط يديه لينهضني اضطربت عظامي لأنهن عاريات من كسوة كانت

عليهن فعرتهن منها الأوقات المتمادية ، وإنما عنيت ما كان من اللحم[١] » .

ويقول : « وسيدنا الرئيس الأجل صاحب ورع ودين وهداية ينتفع بها المهتدون ومن استرشد عثل العبد الضعيف العاجز[٢] فإنما مثله مثل من طلب - فى القتادة - ثمر

(١) وقريب من هذا قوله فى رسالة الملائكة :

« وحق لمثلى أن لا يسأل ، فان سئل تعين عليه الا يجيب ، فان أجاب ففرض على السامع الا يسمع منه فان خالف باستماعه ففريضة ألا يكتب ما يقول ، فان كتبه فواجب ان لا ينظر فيه ، فان نظرها فقد خبط خبط عشواء ، وقد بلغت سن الاشياخ وما صار بيدى نفع من هذا الهذيان ، والظعن الى الاخرة قريب الخ »

وقوله فى اللزوميات :

أصبحت كالقوس حنتهـــا أساورها وكنت كالسيف او كالسهم ينصلت

(٢) عودنا المعرى الافراط فى التواضع كما عودنا الافراط فى ذم نفسه وتنقصها دائماً ، فهو القائل :

« رويدك لا تغترر يا اخى بى فانا الرجل الساقط
ولو كنت ملقى بظهر الطريق لم يلتقط مثلى اللاقط »

وهو القائل : —

« دعيت ابا العلاء وذاك مين ولكن الصحيح ابو النزول »

والقائل : —

« تشابه انفس الحشرات نفسى يكون لهن بالصيف ارتباط »

والقائل : —

« اقررت بالجهل وادعى فهمى قوم فامرى وامرهم عجب »
« والحق أنى وانهم هدر لست نجيباً ولا هم نجب »

النخلة . وإنما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع وشرف النفس وطهارة المولد وخالص الخيم. ومن استرشد بسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين —أجزل الله حظ الإسلام بدوام أيامه— كان كطالب الذهب من معدنه. »

ويقول : « وهو بكتابه الىّ متواضع ، ومن أناحتى يكتب مثلهُ لمثلى ، مثلهُ فى ذلك مثل الثريا كتب إلى الثرى الخ »

ولـكن ماذا يعني مناظره من ذلك كله ؟ إنهُ يريد من المعرى — كما يقول — جواباً صريحاً يشفي الغلة ، وقد رأى فى هذه المجاملات ما يضيع عليه القصد ، فقال فى ختام رسائله: إنهُ يريد منهُ الاستدلال ورفض الحشمة وحذف تكلف للخطاب « سيدنا » و « الرئيس » وما يجرى هذا المجرى ، لأنهُ — فيما يزعم — لا يريد أن يتخال كلامهما شيء من زخارف الدنيا .

وقد طلب إلى المعرى أن يكف عن السجع حتى لا تضيع المعاني بين شتى أسجاعه ، فقال :

«ثم إن قام من الشيخ نشطة لجواب اعفانى فيه من قصد الأسجاع ولزوم ما لا يلزم، فإن ملتمسي فيه المعانى لا الألفاظ.

وقد أدرك المعرى ما يعنيه داعى الدعاة بهذا الرجاء، فلم يأل جهداً فى إضاعة قسم كبير من رسالته التالية فى الدفاع عن السجع والانتصار له. وقد أحسن المعرى فى دفاعه عن السجع وتخير لذلك الدفاع أقوى الحجج والبراهين، وأيد دفاعه بما استشهد به من الأحاديث والآيات القرآنية ليسد عليه هذه الطريق.

## دفاع المعرى عن السجع

على أن السجع كاد يصبح من مقتضيات هذا العصر ولوازمه، وقد أفلتت من داعى الدعاة عدة سجعات ـ جاءت عفواً فى رسائله ـ لتغلب السجع عليه وعلى معاصريه جميعاً. ولم يكن بدعاً أن يولع المعرى بالسجع بعد أن رأيناه يولع بكل قيد ـ من قيود الحياة ـ فيرضى لنفسه بالحبس، ويحرمها لذات الحياة ونعمها الجثمانية، ويروضهـا على التزام

مالا يلزم فى الشعر ،فيضاعف قيد القافية،الى آخر ما أخذ به نفسه من هذه القيود .

وقد دافع المعرى عن السجع بأن الناس فى الإسلام قد استحسنوا السجعات وكثرت فى خطبهم ومراسلاتهم فقلما يخطب بخطبة على منبر الا وفيها سجع . قال :

وأما خطباء العراق فلهم خطب تكون من أولها إلى آخرها مسجوعة ـ على الباء أو التاء وغيرها من الحروف ـ وروى أن بعض الملوك قال لبعض الفقهاء :

« بلغنى أنك تحب السجع » فقال « نعم . » وقرأ عليه آيات من قوله تعالى : « والشمس وضحاها [١] »

* * *

والفواصل التى جاءت فى الكتاب الأشرف على ضروب منها ما هو متباعد لا يجرى مجرى السجع ، وفيها

(١) يشير الى الايات الكريمة :ـ « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والارض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها ، وتقواها الخ »

ما يجرى مجرى المسجوعات ، كقوله تعالى :

« والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر » وكذلك قوله — « ألم تر كيف فعل ربك بعاد [٢] »

وقد أبدع المعرى ما شاء له ظرفه وكياسته أن يبدع ، فقال يداعب داعى الدعاة ويسخر من الذين يحرمون السجع : «ولو علمت الحمائم الساجعة ان الله — سبحانه — أو نبيه (ص) يكره سجيعها على الغصون ، لخرست عنه وتبرأت منه ، وكذلك النوق الموصوفة بأنها ساجعات ، كما قال تميم بن نويرة :

« اذ حنت الأولى سجعن لها معاً . »

ثم علل النهى عن السجع بقوله : «وإنما كرهه النبى (ص) لأنه كثر فى كلام الكهان فنهى عنه غير محرم له ، وقد روى عنه كلام مسجوع الخ . »

## محور الرسائل

أما المحور الذى دارت عليه الرسائل فهو سر امتناع المعرى

---

(٢) يشير الى الايات الكريمة :— « الم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الاوتاد . »

عن أكل اللحم . وقد أحسن المعرى ظنه بسائله في رسالته الأولى ، فلما رأى فى رده عليه ما يبيته له ، رجع على أعقابه وراح يتلمس ـ من المعاذير ـ كل ما وسعه . وما زال مناظره يضيق عليه الخناق حتى دفع آخر عذر له ، وهو الفقر ، فقال له :

« وقد كاتبت مولاى تاج الامراء ـ حرس الله عزه ـ أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلْغَةُ مثله من ألذ الطعام ، ومراعاته على الإدرار والدوام ، ليتكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى أمره على أحسن ما يكون من الصورة[1] »

ولكن المعرى اعتذر عن قبوله الزيادة فى رزقه بأبلغ اعتذار وأرق أسلوب فقال :ـ

« وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق فيدل على إفضال ورثه عن أب فأب ، وجد فى أثر جد ، حتى يصل النسب إلى التراب . فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة ـ وتركها صار له طبعاً ثانياً ـ

---

(١) وهذه امثلة من سجعات داعى الدعاة الذى نهى المعرى عن السجع !

وانه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة .

« والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يوارى فى ثرى رمسه . »

وقد علم أن السيد الأجل تاج الأمراء فخر الملك عمدة الإمامة وعدة الدولة ومجدها ، وود لو أن قلعة حلب وجميع جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الأمراء ، نصير الدولة النبوية — على إمامها وكذلك على الأئمة الطاهرين من آبائه — من غير أن يصير الى العبد الضعيف من ذلك قيراط . وهو يستحى من حضرة « تاج الأمراء » أن ينظر إليه بعين من رغب فى العاجلة — بعد ماذهب . وهو رضى أن يلقى الله — جلت قدرته — وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه المرتبة فقد سعد . »

* * *

وليس عجيباً من داعى الدعاة هذا الإصرار ، وما هو بعجيب من أبى العلاء أن يصر على امتناعه وإبائه رغم ما فى هذا الإصرار من اسخاط مناظره العنيد .

وكيف يرضى أبو العلاء أن يريق دم حيوان ، بعد أن وصل بهِ العطف على كل ذى روح إلى أبعد غاياته ، فأصبح يشفق على البرغوث وينهى عن قتله ويدلل على رأيه تدليلاً جدياً ـ غير عابث ولا هازل ـ فيقول :

« تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبرُّ من درهم تعطيه محتاجا. »

ولماذا ؟

« كلاهما يتوقَّى — والحياة له
عزيزة — ويروم العيش مهتاجا. »

ثم يغضب للغراب ، فيطلب إليه أن يجزى الناس على ظلمهم عدواناً بعدوان وإساءة بإساءة ، إذ يقول :

« جر يا غراب وأفسد ، لا أرى أحداً
إلا مسيئاً وأى الناس لم يجر ؟
لو كنت حارس أثمار لهم ينعت
وصادفوك — لما أخلوك من حجر »

ويتألم للعصفور يعذبه الوليد القاسى بلا رحمة ولا شفقة ـ فيقول :

« وابك على طائر — رماه فتى

لاهٍ — فأوهى بفهره[1] الكتفا

بَكّرَ يبغى المعاش مغتبطاً

فقصّ ـ عند الشروق ـ أو نتفا

كأنه فى الحياة ما فرَعَ[2] الغصـ

ـن ، فغنى عليـهِ أو هتفـا . »

وينهى عن أكل البيض فيقول :

« ولا تأخذ ودائع ذات ريش

فما لك أيها الإنسان بِضَنّهْ . »

الى آخر هذه الأمثلة التى امتلأت بها لزومياته.

***

ومن أظرف ما يلاحظه المتأمل أن المعرى لم يظهر رضاه عن ذبح الحيوان فى الدار الآخرة ـ فى رسالة الغفران ـ إلا بعد أن تخيل أن الحيوان يجد فى ذبحه لذة لا تعادلها لذة ، وأنه — بعد أن يذبح — يعود سيرته الأولى فإذا

---

(١) الفهر : الحجر يملأ الكف

(٢) علا

عظامهُ قد اكتسين لحماً وسار يتخطر فى مشيته فى الفراديس كما كان يفعل قبل ذبحه .

* * *

وما لنا نذهب بعيداً وقد ألم المعرى بفلسفته النباتية فى قصيدته الحائية التي اتخذها داعى الدعاة تكأة يبرر بها هذه المناظرة الحامية الوطيس .

فهو يقول فى هذه القصيدة الرائعة التى لخص فيها شريعتهُ النباتيه أبدع تلخيص :

« فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً

ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح .»

ويدافع عن ذلك بقوله فى رسائله :

« ولا يقدر أحد أن يدفع أن الحيوان البحرى لا يخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا سئل المعقول عن ذلك لم يقبح ترك أكله — وإن كان حلالا — لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . »

ثم ينهى عن استعمال اللبن فى قوله :

« وأبيض أُمَّاتٍ أرادت صريحهُ

لأطفالها دون الغوانى الصرائح . »

وهو يريد بالأبيض « اللبن » ، ويقول فى تبرير رأيه فى رسائله هذه :

«واذا قيل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يساوى بين عباده فى الأقسام ، فأى شىء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى يمنع حظها من الرأفة والرفق ؟ »

ثم يقول :

«ولا تفجعن الطير ـ وهى غوافل ـ

بما وضعت ، فالظلم شر القبائح . »

***

وقد دلل أبو العلاء على صحة رأيه هذا ، متخذاً من قول الرسول: «أقروا الطير فى وكناتها» وما ورد فى القرآن ـ من النهى عن صيد الحرم ـ تكأة يبرر بها قصده ويقول:

إنه لالوم عليه إذا طلب التقرب إلى رب السموات والأرضين بأن يجعل صيد الحل آمناً كصيد الحرم .

وقد نهى عن استعمال العسل ـ كما نهى عن استعمال اللبن ـ فقال :

« ودع ضَرَبَ النحل الذى بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح . »

وعزز هذا الرأى فى رسائله بقوله : « لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه وتجتهد أن ترده من ذلك، فلا غرو أن عرض عن استعماله رغبة فى أن تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الأكيل وأخذ ما كان يعيش به لتشرب به النساء كى يبدنَّ . »

ولو عرف داعي الدعاة توكيد صديقنا الدكتور أَبى شادى أن بعض النحل هادىء وديع لا يحارب الشائر عن العسل كالنحل الكرنيولى والقوقازى لاحتج بهذا الرأى على أبى العلاء

وقد ذكر أبو العلاء شيئاً من كلام العرب ليدلل به على صحة رأيه ، ويثبت ما يعانيه الحيوان من الألم ، كقول قائلهم ، يصف ما يلحق الناقة من الألم والوجد إذا فقدت فصيلها :

« فما وجدت كوجدى أم سقب
أضلته فرجعت الحنينا . »

وقد قال المعرى : « وإن الضائنة تكون فى محل القوم — وهى حامل — فإذا وضعت وبلغ ولدها شهرا — أو نحوه — اعتبطوه فأكلوه ورغبوا فى اللبن ، وباتت أمهُ ثاغية لو تقدر لسعت له باغية . »

وفى هذه الصورة من الألم والروعة ودقة التصوير ما لا يخفى على القارىء .

***

وقد نظم المعرى فى لزومياته قصيدة طويلة يمتدح فيها الديك ويتغنى بفضائله وينعى على الصائم أن يفطر على إزهاق روح ، فقال مخاطبا الديك :

« ولو كنتَ لى ما أرهفتْ لك مدية
ولا رام إفطارا بأكلك صائم . »

ونحب أن يمتع القارئ نفسه بقراءة هذه القصيدة الفذة فى لزومياته .

***

ولكن ما لداعى الدعاة وهذه الخيالات الشعرية ، إن الله قد أحَلَّ ذبح الحيوان وأكله فما قيمة هذه الاعتبارات بعد ذلك ؟ وما بال المعرى يستأثر بالزهد فى هذه الطيبات؟ إنه بلا شك رجل معاند جاحد ، ولا بد من إرغامه على أكل اللحم وإحراجه بكل وسيلة ، فإذا عجز داعى الدعاة عن ذلك فلا أقل من أن يظفر من كلامه بسقطة يظهره بها أمام الناس بمظهر المعاند ثم يقول فى ختام رسائله :

« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سر له أذعته ، وزمان بالقراءة والإجابة شغلته ، لأني — من حيث ما نفعته — ضررته . »

## (٣)

## الخير والشر (١)

« تباركت يارب السموات صغتها
فليتك فى سوائها لم تبارك ! »
« ابو العلاء »

« أبو العلاء — كما قلت فى مقدمة اللزوميات — رجل سوداوى المزاج ، ممعن فى السخط على الحياة ، بالغ فى سخطه وبرمه مدى لا يشركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين . »

والمعرى لا ينظر الى الحياة إلا بمنظار شديد السواد، فهو يراها طافحة بالشر مملوءة بالويلات والمصائب مُتْرَعة بالأحزان والمتاعب ، وهو إن قال :

« نعم ثم جزء من ألوف كثيرة
من الخير، والأجزاء بعد شرور . »

---

(١) نشرت بمقتطف يناير سنة ١٩٣١

لم يلبث أن يستكثر على الحياة أن يكون فيها جزء من ألوف كثيرة من الخير ، فيقول :

« لا أزعم الصفو مازجا كدراً
بل مزعمى أن كله كدر . »

وقد ملأ لزومياته بالسخط والتبرم بالحياة ، بعد أن برم بها — فى سقط الزند — فى مناسبات شتى فقال :

« تعب كلها الحياة فما أعـ
جب إلا من راغب فى ازدياد »

وقال :

« تدعو بطول العمر أفواهنا
لمن تناهى القلب فى وده
يسر ان مد بقاء له
والشر كل الشر فى مده . »

على أن هذه الفلتات التى نعثر بها أحيانا فى سقط الزند قد أصبحت من الدعائم التى بنيت عليها فلسفته فى لزومياته ، فأصبح القارىء لا يكاد يظفر بصفحة احدة فيها

خالية من السخط والنقمة على ما يغمر العالم من شرور وآلام . واللزوميات كلها صاخبة صارخة بهذه المعانى حافلة بالتعبير عنها ، فى سخرية هازئة مَرَّة ، وفى جد قاس مرة أخرى ، وفى ألم لاذع مرة ثالثة ، وفى يأس مميت فى أكثر الأحايين . ألا تراه يقول :

« دعا لى بالبقاء أخو وداد
رويدك إنما تدعو عليَّا
وما كان البقاء لى اختيارا
لوَ ان الأمر موكول إليَّا »

ويقول :

يسمى : « سروراً » جاهل متخرص
ـ بفيه البرى ـ هل فى الزمان سرور ؟

الى آخر هذه الابيات التى امتلأت بها لزومياته كلها .

***

والحق أن المعرى لو بعث رسولا لدعا على قومه دعوة نوح ـ عليه السلام ـ فقال : « رب لا تذر على

الأرض من الكافرين ديّاراً ، إنك ـ إن تذرهم ـ يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفّارا . »

٭٭٭

وما لنا نتخيل ذلك ، وقد دعا على الناس هذه الدعوة نفسها ، وأربى عليها إرباء ، فقال من قصيدة صارخة عنيفة :

« هل ينظرون سوى الطوفان يهلكهم
ـ كما يقال ـ أو الطير الأبابيل (١) »

والمعرى يمقت المرأة لأنها أداة النسل وهو لا يرى فى النسل الا شراً مستطيراً ، ويرى فيه جناية الآباء على الأَبناء ، ولو نال الأَبناء أقصى مناصب الرفعة :

«على الولد يجني والد ولَوَ انهم
ولاة ـ على أمصارهم ـ خطباء . »

---

(١) وفى هذه القصيدة يقول المعرى :

« مضى الزمان ونفس المرء مولعة ... بالشر من قبل هابيل وقابيل
لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا ... لما تحصل شيء فى الغرابيل
اوقيل للنار «خصى من جنى» اكلت ... اجسادهم وابت اكل السرابيل»

الى أن يقول :

«سبحان من الهم الاقوام كلهم ... امراً يقود الى خبل وتخبيل
لحظ العيون واهواء النفوس واد ... واء الشفاه الى لثم وتقبيل»

ويقرر — في صراحة — أنه يود أن تخلو الدنيا من ساكنيها ليخلصوا من شرورها ، ويقول إن الناس لو رأوا رأيه

« لعطلوا هـذه الدنيا ، فما ولدوا

ولا اقتنوا ، واستراحوا من رزاياها »

وهو يرى الشر متأصلا فى النفس والخير لا يأتى إلا عرضاً ، فيقول :

« ألم تر أن الخير يكسبه الحجى

طريفاً وأن الشر — فى الطبع — متلد »

إلى آخر هذه الأبيات التى يضيق المقام عن ذكر القليل منها بله كثير .

والمعرى يمقت الظلم السائد فى العالم أشد المقت ، ويتألم من فتك القوى بالضعيف ، ويندد بذلك فى كل مناسبة ، وهو يقرر — فى صراحة تامة لا لبس فيها ولا إبهام — أن الطبائع كلها مفطورة على هذا الجور ، مجبرة عليه ، وأن البازى — بطبعه — يفترس القطا ، لأن الله — سبحانه — قد أراد له ذلك

« ولو لم يرد جور البزاة على القطا
مكونها ما صاغها بمناسر (١) »

وهو يرى الظلم مركباً فى طبيعة الضعيف والقوى على السواء

« كادت تساوى نفوس الناس كلهم
فى الشر ما بين منبوز ونباز
ظلم الحمامة فى الدنيا ـ وإن حسبت
فى الصالحات ـ كظلم الصقر والباز . »

* * *

هذه هى وجهة الفلسفه العلائية فى تفهم الخير والشر .

---

وفى ذلك يقول المعرى :

« ولولم يقدر خالق الليث فرسه لمطعمه لم يعطه الناب والظفرا »

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام بهذه المناسبة قول المعرى :

« سبحان من الهم الاجناس كلهم امرا يقود الى خبل وتخبيل »

وقوله :

« والله يحمد كلما طال المدى طمت الشرور وقلت الاخيار »

الى آخر هذا الحمد الساخر الذى يذكرنا بقول القائل :

« لك الحمد اما ما نحب فلا نرى ونتظر ما لا نشتهى فلك الحمد ! »

فانظر إلى وجهة مناظره ـ داعى الدعاة ـ ترها على النقيض منها ، وتجد داعى الدعاة « الذى يتوكأ على عصا العقل » ـ على حد تعبيره ـ يحاول إقناع المعرى بوجوب أكل اللحم فيقرر له نظريات يدين المعري بما يناقضها كل المناقضة. فيقول داعى الدعاة : « أليس النبات موضوعاً للحيوان الذى يمتاز منه وبوجوده وجوده واستقامته فى حفظ أنواعه وولادة مواليده ؟ وإنما يستولى الحيوان على النبات بالقوة الحساسة التي ترجح بها على النبات من حيث كونه نامياً فقط وليس بحساس ، وعلى ذلك فالقوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل،وما ينبغي أن يكون أرأف بهامن خالقها»

ويرى داعى الدعاة أن الله يريد ذلك كما يدل عليه وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله — سبحانه — على صنيعة لا تصلح إلا لنتش اللحم وفسخه وتمزيق الحيوان وأكله . وإذا كان هذا الشكل

قائم العين فى الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر فى أكل اللحوم . »

ويقول داعى الدعاة : « وإما أنه [١] يجد سفك دماء الحيوان خارجاً من أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على الخالق الذى هو أعرف بوجوه الحكمة . »

* * *

فأنت ترى الهاوية السحيقة التى تفصل بين النظريتين، وترى من ذلك أن المعرى لم يكن له بد من تقرير نظريته مع ما فى ذلك من الخطر الجسيم الذى يتهدده حين يقررها. وقد أفاض المعرى فى إقناع مناظره أن الحيوان كله إحساس يقع به الألم، ثم انتقل إلى المشكلة الخطيرة التى عرض لها داعى الدعاة فى رسائله ، فقال :

« إذا تبينا القضية المركبة من مُسند ومسند إليه ، ولها واسطتان إحداهما نافية والأخرى استثنائية ، فقلنا : « الله لا يفعل إلَّا خيراً » أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟

---

(١) يعنى المعرى.

فإن قيل: «إنها صادقة» رأينا الشرور غوالب، فعلمنا أن ذلك سر خفي» . ثم ذكر المعرى طائفة من الشرور التى لا يستطيع مناظره أن يجحد أنها شرور، كموت إبراهيم ولد النبي (ص) وقتل حمزة عمه وقتل الحسين وسم الحسن وقتلى أُحُد، وكيف فجع أبو ذؤيب فى بنيه السبعة الذين شربوا من لبن قد شربت منه حية ثم قاءت فيه فهلكوا فى يوم واحد الخ .»

وسأل مناظره : « أفهذه الأشياء خيرات أم شرور؟»

فإن قال قائل : «هى مخوفة منكرة» فقد أبطل القضية التى هى متقدمة ، وإن قال : « القضية المذكورة لا تصح ، فالسائل بِسَيِّءِ الأدب يلح، وإن قال : « القضية منعكسة» فقد لزمه أن يقول : « إن الله — سبحانه — يفعل الخير والشر . » فإن أبى ذلك رجع إلى ما يقوله المجوس من أن للعالم خالقين أحدهما فاعل الخير والآخر فاعل الشر . ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة .

ثم قال المعرى : وللسائل أن يقول « إن كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، وإما أن يكون غير عالم به — ونعوذ بالله من هذه المقالة — فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون مريداً له أو غير مريد ، فإن كان مريداً له فكأنه هو الفاعل ، كما أن القائل يقول : « قطع الأمير يد السارق » ، فالأمير قطعها إلّا أنهُ لم يل ذلك بنفسه. وإن كان غير مريد له فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير له في الأرض نظراء كثير — لأنه إذا فُعِل في ولايته شيء لا يرضاه نكره أشد نكير وأمر بزواله . »

هذه هي العقد التي قد جهد في حلها المتكلمون — من أهل الشرائع — فلم يجدوا لها انحلالاً، وأصبح مقالهم ضلالاً.

***

ولما أحس المعرى أنه قد ضيق على مناظره الخناق ، أخذ يناقشه في مسألة « الرأفة » التي بنى عليها نظريته ، فقال المعرى بجرأة عجيبة :

ويقول القائل : قد ذكرت الأنبياء أن البارىء — جلت قدرته — رءوف رحيم، ونشاهد ماهو — على غير ذلك — دليل ، لأنه لو رأف ببنى البشر لوجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأدنى شىء ، ولِمَ يخص الإنس بذلك وهم الذين يجنون الكبائر ويقدمون على اتيان الذنوب ؟ وقد رأينا الجيشين المنتسب كل واحد منهما الى الشرع المنفرد ، وكلاهما فى مدد ويقتل بينهما آلاف ، أفهذا محسوب من أى الوجهين ؟

وإذا قيل إن البارىء رءوف رحيم فلِمَ يسلط الأسد على افتراس نسمة إنسية ؟ ولِمَ مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ؟ وما الطير الراضية بلقط الحبة ، الراجعة بها إلى الأحبة ، فسُلّط عليها باز أو صقر فمنعها من النقر ؟

وإن القطاة لتدع فراخها ظماءً وتبتكر لترد ماء فيصادفها أجدل فينال الظفر بقوته ويهلك أفراخها أُواماً .

وقال بعض المُلحِدة فى الآية : « وإنهُ أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح ـ من قبل ـ إنهم كانوا

هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشّى »
إن كان البارىء - جلت قدرته - خلقهم وهو يعلم أنهم
مجرمون ، يحرمون التوبة ولا يرحمون ، فكان ينبغي أن
لا يخلقهم ، لأن خلقهم أداهم إلى العذاب والتجرع من
الصاب ، وإن كان لا يعلم بما يصيرون إليه فهو كغيره من
الفاعلين . وقد يربي الرجل ولداً فيكون عاقاً ، أو يملك عبداً
فيخرج معانداً مُشاقاً ، ومعاذ الله أن نقول ذلك ؟ »

٭٭٭

وقد لخص المعرى فى هذه السطور القليلة فلسفتهُ المبعثرة
فى أشتات كتبه - واللزوميات خاصة - وأبان بصريح العبارة
عما يعتقده اعتقاداً جازماً ، وإن حاول أن ينسب هذه
الآراء إلى غيره ويقنع داعى الدعاة بأنهُ راوية لا أكثر
ولا أقل . فقد طالما ألفنا منه هذا الأسلوب فى رسالة الغفران
واللزوميات وغيرهما من كتبه .

على أن داعى الدعاة قد أدرك غرض المعرى إدراكاً
صحيحاً ، وبعث إليه يقول :

« أهذه هى أنباء الأمور الصحائح » التى يهدى بها من استهدى ؟ وهل زاد السقيم بدوائهِ هذا إلا سقماً ، والأعمى الأصم ـ فى دينهِ وعقله ـ إلا عمي وصما ؟ »

ويقول : « وأما ما تبع هذا الفصل من ذكر فجيعة رسول الله (ص) بإبراهيم ولده ـ عليه السلام ـ وذكر سم الحسن وقتل الحسين الخ الجارى كله على سياقة واحدة ، والاستخبار عن كون ذلك خيراً أو شرًّا ، فهو داخل فى مضمار التقاسيم المذكورة التى عددتها وتركتها فى غواشى ظلماتها . فقد سبق القول : إنه ما حل فى السؤال الأول عقالاً ، بل زاد بهذه الأسئله تيهاً وضلالا .

وأما قوله فى أن اللحوم لا يوصل إليها إلّا بإيلام الحيوان الخ ، فقد سبق القول بأنه لا يكون أرأف بها من خالقها ، فليس يخلو من كونه عادلاً أو جائراً فإن كان عادلا فانه ـ سبحانه ـ يقبض أرواح الآكل والمأكول جميعاً ، وذلك مسلم له ، وإن كان جائراً لم ينبغ أن نرجح على خالقنا بعدلنا وجوره .

وأما قوله : «وللسائل أن يقول ان كان الخير هو الذى لا يريد ربنا سواه الخ »

فأقول فى الجواب : «قيل إن إنسانًا ضاع له مصحف فقيل له :

« اقرأ والشمسِ وضحاها فإنك تجده » فقال : «وهذه السورة أيضًا فيه . »

فكذلك أقول : «إن هذا أيضًا من ذاك ، وجميعه ظلمات فأين النور؟ وإنما قصدناه للنور ، لنعرف أنباء الأمور الصحائح ! »

# (٤)

# اثر هذه الرسائل فى تسوىء سمعة المعرى

« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سر له أذعته ،
وزمان بالكتابة والاجابة شغلته ، فانى
— من حيث ما نفعته — ضررته »
« داعى الدعاة »

وهكذا أصدر داعى الدعاة قرار الاتهام من أعلى منصة تشريعية فى ذلك الزمن المنكود ، وأصدر داعى الدعاة حكمه بادانة المعرى الذى مات قبل أن يبلغه نص الحكم ، فلم يستطع له مناقشة أو استئنافاً بعد أن صار فى عالم الخلود .

وهللت مجهرة الناس لهذا الحكم وصفق له طربا الأغرار وذوو المآرب والحاجات والأحقاد جميعاً .

وقد أصدر داعى الدعاة حكمه في صيغة الاعتذار بعد أن دس فيه الاتهام صريحاً لا مواربة فيه ولا لبس .

داعي الدعاة يعتذر للمعرى عن كشف أسراره وإذاعة عقيدته للملأ — عن غير قصد — وهو الذى لم يكتب رسائله إلا ليصل بكل حرف منها إلى هذه الغاية كما أسلفنا القول . ومم يعتذر داعى الدعاة ؟ وما هى تلك الأسرار الخطيرة التى كشفها ؟ وأى كلام قاله المعرى فى رسائله هذه من غير أن يوجزه مرة ويفصله أخرى فى لزومياته وغفرانه وغيرهما من عيون آثاره ؟

ولكن داعى الدعاة — الذى ظهر عجزه واضحاً فى إقامة دليل واضح يثبت به دعاواه — قد أفلح فى زعمه أنه هتك أستار المعرى وأذاع من مستوره ما كان يحرص كل الحرص على اخفائه . فتوهم البسطاء — من معاصريه وغير معاصريه على السواء — أن عقيدة المعرى زائغة لا محالة ، وإلا ففيم كان يسترها ؟ وحسبوا أن المعرى كان يخفى عقيدته حتى جاء داعى الدعاة فأزاح عنها الأستار وهتك عنها الحجب فإذا المعرى — الذى يميل إلى التقية — زنديق فاجر .

ومن الذى أصدر هذا الحكم القاسى على المعرى ؟ هو

رجل له مظهر رائع ومخبر خبيث ، فأما مظهره الرائع فهو أنه داعى الدعاة « الذى تلى رتبته قاضى القضاة والذى يتزيا بزيه فى اللباس وغيره وينوب عنه أيضاً ، والذى يحيط علمه بجميع مذاهب أهل البيت ويقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبهم إلى مذهبه ، والذى بين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد ، والذى يحضر إليه فقهاء الدولة وعلماؤها فى فى مكان يطلقون عليه « دار العلم » ، ولجماعة منهم — على التصدر بها — أرزاق واسعة ، ووظيفته — كما يقولون — من مفردات الدولة الفاطمية . »

***

هذا هو مظهر داعى الدعاة الذى يطالع جمهرة الناس وسوادهم أخاذاً رائعاً ، وهذا هو جاهه الذى تنخلع أمامه قلوب المتملقين ذوى المنافع وتزيغ أبصارهم حين يضىء لهم بريقه وسناه .

أما مخبره ، فقد فصلناه بعض التفصيل فى مقالنا الأول

وأظهرنا طريقته الخبيثة التى كان يسلكها فى زلزلة عقائد المسلمين وسلخهم عن دينهم بما أوتيه من قدرة شيطانية بارعة جعلت المعري يعرّض به مراراً فى لزومياته ، مما أثار حقده عليه ودفعه إلى مقابلة الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، فراح يدبج هذه الرسائل المنمقة ليصل إلى غايته التى كان يتحرق شوقاً إليها — وهى تسوىء سمعة المعرى — وقد نجح فى ذلك كل النجاح .

***

فأنت ترى حقيقة هذا الرجل الذى أفلح فى تسوىء سمعة أبى العلاء ، وترى أنه رجل لا عمل له إلا تضليل الناس وزعزعة عقائدهم ليبث فيها سموم المذهب الباطنى .

وأنت ترى أن داعى الدعاة هو أجدر من ينطبق عليه قول المعرى :

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا
أن الصغائر تجنى الخلد فى النار[1] »

---

(١) وقريب من هذا المعنى قول المعرى :
«يعيب اناس أن قوما تعرضوا بجامهم نصب العيون الشوازر
لقد افلحوا ان كان لم يجر عندهم ـ من الوزر ـ الا تركهم للمآزر»

والناس قلما يعنون بحقيقة من يصدر الحكم ، وإن عنوا دائما بمظهره ورفعة منصبه ، وحسبهم أن يتلقفوا الحكم من القاضى [١] قضية مسلمة ـ مهما بعد عن الصواب ـ حتى يصدر حكم آخر من مقام أرفع فينقض سابقه .

على أن الشر أعلق بالنفوس وألصق وأكثر إذاعة من الخير ، وللمعرى خصوم يتلمسون لهُ سقطة يملئون بها الدنيا ويقيمونها ويقعدونها . والجمهور لا صبر له على متابعة تفاصيل المناقشة الدقيقة والحكم عليها بنفسه ، وحسب المناظر اللبق أن يزعم لنفسه الفوز ويسجله ثم يتظاهر برحمة مناظره والأسف على ما لحقه من خذلان، فينخدع بكلامه الجمهور ويعتقد أنه غالب منتصر . وهذا ما فعله داعى الدعاة.

---

(١) وقد بدع الكاتب الانجليزى الذائع الصيت « برناردشو » فى تحليل هذا الرأى فى روايته « Getting Married » فذكر حواراً بين زوج يريد ان يفسخ عقد الزواج وآخر يتشبث بتحريم ذلك « لأن ما يعقده الرب لا يحله العبد » فيقول له الزوج « ولكن القسيس الذى عقد الزواج عبد مثلنا » فيجيبه : « ولكنه يمثل سلطة الرب . » وتمتد المناقشة فينفد صبر الزوج ويقول له : « لقد عزل هذا القسيس بسبب تهتكه وسوء سلوكه ، الا تزال مصرا ـ بعد ذلك ـ على ان ما عقده لا يزال ثابتاً لانستطيع ان ننقضه. »

وهذا مثال واضح من احترام الجمهور للحكم اياً كان مصدره

***

وقد مات المعرى قبل أن يقرأ الرسالة الأخيرة فلم يستطع أن يفند شيئاً من مزاعم خصمه فى الانتصار عليه .

ولقد كان كثير من الناس يشغلون أنفسهم بتعرف عقيدة المعرى ويميل بعضهم إلى تكفيره كما يميل آخرون منهم إلى حسن الظن بدينه وعقيدته ، حتى جاءت هذه الرسائل فرجحت كفة الاتهام أيما رجحان .

ولسنا نزعم أن هذه الرسائل ـ هي وحدها ـ التى سوأت سمعة المعرى ، ولكننا نميل إلى الزعم بأنها كانت من أكبر الاسباب التى تضافرت على خلق هذا الجو المكفهر حول عقيدته

وقد خدع ياقوت ـ فى جملة من خدع ـ بهذه الرسائل ، وظهر تحامله على المعرى واضحاً فى مناسبات كثيرة ، فشتم المعرى وسفه آراءه وقال مرة : « إن المعرى ـ حمار » .

ولما لخص رسائله هذه قال فى مقدمة تلخيصه :

« ونقلها على هذا الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعرى وتشدقه » ولم يقل « دون تفاصح داعى

الدعاة وتشدقه » أو على الأقل : « دون تفاصحهما معاً » .
فينفى بذلك تهمة التحيز والهوى .

والعجيب أن ياقوت الرومى ـ على فضله ـ لا يكاد يدع فرصة يذكر فيها اسم المعرى دون أن يشتمه أو يتنقصه . فإذا روى المعرى ـ وهو الحجة الثبت الصادق فى روايته، الذى عرف بالأمانة والدقة وسعة الاطلاع ـ بعض أبيات قالها أحد اليهود فى الخليفة عمر [١] علق عليها ياقوت بقوله :
« وهذا يشبه أن يكون شعر المعرى قد نحله هذا

---

(١) يعنى قول المعرى فى رسالة الغفران : « ولما اجلى عمر بن الخطاب اهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال ان رجلا من « يهود خيبر » يعرف بسمير ابن ادكن ، قال فى ذلك :

« يصول ابو حفص علينا بدرة    رويدك ، ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط    لتشبع ، ان الزاد شىء محبب
فلو كان موسى صادقا ، ما انتصرتم    علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى المين ، فاعرفوا    لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على أثارنا ـ فى طريقنا ـ    وبغيتكم فى ان تسودوا وترهبوا»

وهذا الخبر ـــ كما يراه القارىء طبيعى ـــ والابيات لا يستبعد صدورها من يهودى موتور اجلاه الخليفة هو وقومه عن جزيرة العرب ، والمعرى يذكر الخبر وقبله كلمة « يقال » ثم لا يزيد ولكن ياقوت لا يريد ان يقتنع ويأبى الا اتهام شيخ المعرة بسوء النية والتلفيق .

اليهودى ، أو ان إيراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه . »

أرأيت إلى أى مدى تعسف ياقوت فى حكمه واشتط ؟ ولكنه الهوى :

وآفة الرأى الهوى ، فمن علا
على هواه عقله فقد نجا .

٭٭٭

وقد أورد ياقوت ـ فى كتابه « معجم ياقوت » شيئاً من أخبار الزارين على المعرى ، وذكر حين تكلم عن ذى الفضائل[1] ما يأتى : قرأت فى ديوان شعره بخطه :

أنشدت لأبى العلاء :

هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهتدت ،
ويهود حارت ، والمجوس مضلَّله
اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا
دين ، وآخر ديّن لا عقل له .

فقلت مجيباً له :

---

(١) وهو من ادباء القرن السادس ، توفى سنة ٥٢٨ هـ

الدين آخـذه وتاركـه

لم يخف رشـدهما وغيهما

اثنان أهل الأرض قلت فقل

يا شيخ سوء أنت أيهما »

***

والبيتان « هفت الحنيفة » لا يفهم منهما هذا الفهم الذى فهمه « ذو الفضائل » وأقره ياقوت فأثبته من غير مناقشة . وما أجدر من يتصدى لنقد المعرى أن يتقصى معانيه حتى لا تزل قدمه ، فإن المعرى كثيراً ما يطرق المعنى بأساليب شتى — يوضح بعضها بعضاً — وكثيراً ما يظهر المعنى خفياً فى بعض أبياته جلياً فى الأخرى ، وليس من الإنصاف أن نفهم كلامه فهماً سطحياً ثم نشنع عليه بعد ذلك من غير حق .

والمعرى لا يريد أن يقول : إن كل متدين لا عقل له وإن كل عاقل غير متدين . ولكنه يأسف لأنه يرى أكثر المتدينين مقلدين لا يحكمون العقل ، وأكثر من يحكمون

العقل يغالون فلا يأخذون بأسباب الدين ، وقد قال المعرى في لزومياته : « كن ديناً ولبيباً » وقال في مكان آخر منها :

«إذا كان التقى بلهاً وعياً فأعيار المذلة أتقياء»

وهو يعني بالحنيفة أتباعها ، فهو يقول « هفا المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وضلوا عن طريق الحق والصواب » وهذا كلام لا غبار عليه ، فهو يرى الناس دائما شراً لا خير فيه . وقد قال في موضع آخر من لزومياته ما يوضح قوله : « هفت الحنيفة » وهو قوله :

« كتاب محمد وكتاب موسى
وانجيل ابن مريم والزبور
هدت أمماً فما قبلت وبارت
نصيحتها ، فكل القوم بور»

الى آخر هذه الأقوال التي يطول بنا الكلام إذا ذكرناها.

وليس ياقوت وحده هو المتحامل على المعرى فله مشبهون ونظراء كثيرون . فقد سمع « ابن أبي كدية » قائلاً ينشد قول المعرى :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة

وحقّ لسكان البرية أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا

زجاجٌ ولكن لا يعاد له سبك »

فقال ابن أبي كدية :

« كذبت — وبيت الله — حلفة صادق

سيسبكنا — بعد الردى — من له الملك

ونرجع أجساماً صحاحاً سليمة

تعارف في الفردوس، ما عندنا شك ! »

والبيتان — على ما فيهما من ضعف وركاكة — يدلان على تعسف في فهم كلام المعرى الذى لم يتعرض فيهما لذكر الآخرة (١) ، فهو يقول : إن الموت هو آخر الحياة الدنيا

---

(١) وقد قال المعرى فى معنى البيت الاول :

« أعن باكيا لج فى حزنه     وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ »

وقال ايضاً :

« يسمى سروراً جاهل متخرص     بفيه البرى ، هل فى الزمان سرور ؟ »

ويوضح معنى البيت الثانى قوله :

« افطر وصم ، او صم وافطر — جاهداً —     صوم المنية ما له إفطار »

ونهايتها وإن غرور الناس ينسيهم هذه الحقيقة ـ على بساطتها ـ فيجعلهم يتخيلون الموت رحلة هينة قصيرة المدى كما يقول .. فى بعض أبياته :

« يوصى الفتى عند الحمام كأنه

يروح ـ ليقضى حاجة ـ ويعود »

وهو يريد أن يقول لهؤلاء الناس :

« كلاً لن تعودوا إلى الحياة مرة أخرى فأقلوا من أطماعكم فى الدنيا وحرصكم عليها فأنتم زجاج لا يعاد لهُ سبك، ولا أمل لكم فى العودة ، فلا توصوا فهى رحلة لا عودة لكم منها » .

وما نريد أن ندافع عن المعرى ، ولكنا نريد أن نبين للقارئ تحامل ناقديه عليه وتعسفهم فى نقده .

***

ولقد لقى المعرى الأهوال وكيلت له التهم ـ من معاصريه وغيرهم ـ على السواء ـ وأغرى بعض الولاة بتعذيبه[1]

---

(١) وفى ذلك يقول :

كأنى ـ كل حول ـ محدث حدثاً يرى به ـ من تولى المصر ـ اغرابى»

واتهمه بعض معاصريه: « بأنه وضع كتاب الفصول والغايات في معارضة القرآن » ورماه غيرهم بالإلحاد. وقال ابن الجوزي في كتابه: « تلبيس إبليس » ما يأتي: « ومن زنادقة الاسلام من لم يبرح على تعثره ففاتته الدنيا والآخرة مثل ابن الراوندي والمعري » .

وقال الذهبي: « والمعري صاحب التصانيف المشهورة والزندقة المأثورة، وله رسالة الغفران قد احتوت على مُزدكة واستخفاف . »

إلى آخر هذه المزاعم التي يطول بنا الكلام إذا ذكرناها وناقشناها. وحسبنا أن نقول: إن المعري كان مفتونًا بالقرآن وأسلوبه. وقد كتب في رسالة الغفران نفسها أروع وأبلغ ما يكتبه إنسان في وصف القرآن، وشنع على من تصدى لمحاكاته، وقد حمل على «ابن الراوندي» حملة شعواء وسفهه كل التسفيه لاستخفافه بالدين وتصديه إلى محاكاة القرآن. وقد فند المعري آراء المزدكية بأبلغ حجة وأقوى بيان، وندد بإباحتهم ــ في رسالة الغفران واللزوميات ــ بصراحة

لا مواربة فيهـا فقـال مرة :

«شر النساء مشاعات ـ يكُنّ لنا
كالارض ـ يحملن أبناء مشاعينا.»

وقال فى مناسبة أخرى :

«أقـروا بالإله وأثبتـوهُ
وقالوا : « لانبي ولا كـتاب »
ووطء بناتنـا(١) حل مباح
رويدكم فقـد بطل العتـاب

---

(١) يشير المعرى بهذا الى قول هذه الفئة — وقد اثبته المعرى فى رسالة الغفران — وروى ان قيانهم كانت تضرب بالدف وتقول :

«خذى الدف يا هذه واضربى وبثى فضـائل هـذا النبى
تولى نبي بنى هاشـم وجاء نبى بنى يعـرب
فلا تبتغى السعى عند الصفا ولا زورة القبر فى يثرب
اذا القوم صـلوا فلا تنهضى وان صوموا فـكلى واشربى
ولا تحرمى نفسـك المؤمنـين ، ومن اقربين ومن اجنبى
فـكيف حللت لذاك الغريـب وصرت محرمة للأب
اليس الغراس لمن ربه ورواه فى عامه المجـدب
وما الخمر إلا كماء السحا ب طلق ، فقدست من مذهب»

وقد شفع المعرى رواية هذه الابيات ـ كعادته ـ بلعن قائلها .

تمادوا ـ فى الضلال ـ ولم يتوبوا
ولو سمعوا صليل السيف تابوا »

## كلمـة ختاميـــة

وبعد ، فقد شغل الناس بعقيدة المعرى وفلسفته كما شغلوا بشعر المتنبى وشاعريته ، واختلفوا فى ذلك اختلافاً بلغت مسافته من النقيض إلى النقيض . ولا بدع فى ذلك فقد ألف الناس أن يشتغلوا بالعظيم ويختلفوا فى تقديره .

***

وقد خلد ذكر المعرى ـ رغم أنف حاسديه ـ وضاع ذكر داعى الدعاة فى غمار الخاملين والمجهولين ، حتى ليصعب على الباحث المؤرخ أن يتعرف من هو « هو أبو نصر هبة الله ابن موسى » ـ ممثل منصب داعى الدعاة ـ وماهى آثاره العلمية أو الادبية ، وإن كان من اليسير أن يعرف الكثير عن منصب داعى الدعاة الذى يمثله « أبو نصر » هذا وغيره من الممثلين الدينيين الذين لا خطر لهم ولا قيمة إلا بمناصبهم الرفيعة وجاههم العظيم .

---

# (٦)

# ابن الرومى

« لو نطق الدهر هجا اهـــله

كأنه الرومى او دعبـــل »

« ابو العلاء »

# (١)

## كيف أغفله صاحب الأغانى[١]

ألف أبو الفرج كتابه الأغانى لغرض خاص هو إثبات المائة صوت التى اختاروها للرشيد ، ثم جره ذلك إلى الاستطراد ، فذكر من الطرف والبدائع شيئاً كثيراً حتى أصبح كتابه كنزاً لا مثيل له فى كنوز الأدب العربى.

فإذا أغفل أبو الفرج التنويه بشاعر فحل كابن الرومى ، فهل نجد من يحتج له بهذا العذر ؟ وأية دهشة تتملكنا ، بل أية حيرة تملأ نفوسنا حين نجيل البصر فى هذه الأسفار الضخمة التي تؤلف دائرة معارف أدبية نادرة فنرى مؤلفها ـ الذى أغفل ابن الرومى ـ قد استطرد أكثر من ألف مرة إلى ذكر من يستحق الذكر ومن لا يستحقه والتنويه بشعراء ـ إن أجللناهم مرة ـ نزهنا ابن الرومى عن أن يوضع معهم فى ميزان أو يقاس إليهم بمقياس .

(١) نشرت بمقتطف مايو سنة ١٩٢٩

ورأيناهم – إلى جانبه – أقزاماً أمام عملاق !

فإذا زعم زاعم أن شعر ابن الرومي لم يغنَّ به ، قلنا له هـذه مسألة فيها نظر، وليس لدينا الآن ما ندحض به زعمه فإن أخبار ابن الرومى لم يصلنا منها شيء يذكر ، وقد أجمع المؤرخون – أو كادوا يجمعون – على إغفال هذا الشاعر العظيم كما تعمد أبو الفرج أن يغفل ذكره إغفالا يكاد يكون تاماً ، فى حين أنه ملأ الدنيا بأخبار البحترى الذى كان يعاصر ابن الرومى ، وأخبار أبي تمام أستاذ البحترى ، وكثير من معاصريهما وغيرهم من المشهورين كأبى نواس ودعبل الخ . وقد عنى أبو الفرج – فى غير كتابه الأغانى – بدواوين من يحبهم من الشعراء ، فجمع ديواني أبي تمام والبحترى ، ورتب ديوان كل منهما على الأنواع – لا على الحروف – كما عنى بجمع ديوان أبى نواس !

وتعمد الإغفال ظاهر ، فإن أبا الفرج لم يذكر ابن الرومى فى كتابه « الأغاني» إلا مرتين ، وكأنه لم يذكره إلا ليسيء إليه بدلا من أن يشيد بذكره .

فقد ذكره فى الموضع الأول بمناسبة انتحاله بيتاً من الشعر لإبراهيم بن العباس[١] ، وذكره في مكان آخر من الكتاب بمناسبة نكبة سليمان بن وهب وابنه[٢] ليظهره لنا بمظهر الشامت وكلا الموقفين لا يشرف صاحبه .

فى الموقف الأول يعرفنا به سارقاً منتحلا بيتاً من الشعر

وفى الموقف الثاني يقدمه لنا هاجياً فى غير موقف هجاء ، ليثبت أبو الفرج ـ فى نفس الصفحة ـ رثاء البحترى لسليمان ابن وهب الذى جود فيه ـ كما يقول أبو الفرج ـ ثم يذيع ثناءه على البحترى بإطرائه إبراهيم بن العباس والإشادة بذكره !

فإذا لم يكن ذلك إغفالا فهو عندنا شر من الإغفال ، وإذا لم يكن أبو الفرج الأريب الفطن والراوية الثقة قد تعمد الاساءة إلى ابن الرومي فكيف يكون تعمد الإساءة بعد ذلك ؟

٭٭٭

(١) ارجع الى ج ٩ صفحة ٢٨ من كتاب الأغانى
(٢) ارجع الى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاغانى

لم يكن ابن الرومى خاملا فى عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة أبيات من شعره في هـــذه الموسوعة الضخمة . وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملا ، وهو وهم يفنده الواقع ، فلم يكن ابن الرومي خاملا ـ لا فى عصره ولا بعده ، ولكنه كان مكروهاً من الناس لافحاشه فى الهجاء حتى لم يكد يسلم من لسانه إنسان له خطر! [1]

فاذا قال قائل :ـ « ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل وذكر كثيراً من أخباره وهو كابن الرومى في سلاطة اللسان والإقذاع فى الهجاء ؟ »

قلنا إن عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومي بقليل وقد مات من أساء إليهم دعبل وقل حقد الناس عليه ، فلم يكن هناك بأس من الإشادة بذكره والتنويه بفضله .

أما ابن الرومى فقد أساء إلى أعيان الدولة وكبار رجالها كما أساء إلى شيوخ الأدب وزعماء الشعر ، ولم تزل إساءته ـإلى زمن أبي الفرج ـعالقة بالأذهان ، ولا زال بعض من

---

(١) وقد كان الهجاء سبب قتله

أفحش ابن الرومى فى هجائهم عائشاً فى زمن أبى الفرج ، وربما كان من بينهم أقاربه وأصدقاؤه ! . ولقد كان أبو الفرج من المتشيعين ، وكان ابن الرومي متهماً بالتشيع ، ولم تكن هذه الصلة شفيعاً له عنده ولا سبباً يدعوه الى التنويه بذكره .

## هجاء البحترى والأخفش

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعاً وأفرط فى شتمه ، وكان للبحترى مكانة بين أعيان الدولة وكبار رجالها — حتى بعد موته — وقد رأيت أن أبا الفرج كان يحبه ويشيد بذكره ويعنى بآثاره ، . ولا يتسع هذا المقام الضيق للاسهاب فى ذلك وشرح الأسباب التى دعت اليه ، فلنجتزئ بقوله فى هجائه من قصيدة :

قد قلت — إذ تحلوه الشعر — : « حاش له

إن البروك به أولى من الخبب »

وفيها يقول :

« وحسبه من حياء القوم أن يهبوا

له قفاه ـ إذا مامر ـ بالعُصَبِ[1] » .

ثم يقول :

« الحظ أعمى ، ولولا ذاك لم تره

للبحترى بلا عقل ولا أدب . »

وفى هذه القصيدة يقول :

قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها

من شعره الغث بعد الكد والتعب

كأنها ـ حين يصغى السامعون لها

ممن يميز بين النبع والغرب ـ

رُقي العقارب ، أو هذْر البناة اذا

أَضحوا على شعف الجدران فى صخب

وقد يجىء بخلط ، فالنحاس له

وللأوائل ما فيــــه من الذهب

---

(١) جماعات الناس

سمين ما نحلوه من هنا وهنا ،
والغث منهم صريح غير مجتلب
يسىء عفا ، فإن أكدت وسائله
أجاد لصا شديد البأس والكلب

ثم يقول :

عبد يغير على الموتى فيسلبهم
حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما إن تزال تراه لابساً حللا
أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليه باسلا بطلا
وينشد الناس إياه على رقب

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة التى لا نسمح لأنفسنا بنقل ما ورد فيها من الهجاء المقذع والفحش الشنيع فى مثل هذا المقام . فليرجع اليها القارىء فى ديوانه إذا شاء .

***

ولا تنس هجاء ابن الرومى للأخفش ـ أستاذ أبى الفرج ـ

فقد كان ابن الرومى يقف حياته على هجاء الأخفش ، وكان الأخفش يقف حياته على التشنيع به والزراية عليه ، فلا غرو أن يغرس الأستاذ فى نفس تلميذه بذور الكراهية والبغض لابن الرومى ـ منذ الصغر ـ أو يغضب التلميذ لأستاذه فتعمد إغفال من جعل همه الأول شتم أستاذه والتشهير به . « وآفة الرأى الهوى ! » .

* * *

وإلى القارىء شيئاً من هجاء ابن الرومى للأخفش ليتبين صحة ما ذهبنا اليه ، قال من قصيدة طويلة رائعة :

«قلت لمن قال لى : « عرضت على الأخ
فش ما قلته فما حمده . »
قصرتَ بالشعر حين تعرضه
على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعراً ولا رواه ، فلا
ثعلبه كان ، لا ولا أسده

فإن يقل : « إنِي رويت» فكالدف
تر جهلا بكل ما اعتقده
أرمت زيني بأن تعرضنى
لمدحه ؟ فالذليل من عضده
أم رمت شيني بأن تعرضني
لثلبه ؟ فالسليم من قصده . »

إلى أن قال :

« شعرى ـ شعر ـ إذا تأمله الإ ز
سان ذو الفهم والحجا ـ عبده
لكنه ليس منطقاً بعث الل
ه به آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطي
ر سليمان قاهر المرده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من
تفهم عنه الكلاب والقرده »

ثم قال ـ بعد أبيات : ـ

لا رحم الله أم أخفشكم

ولا سقى قبر والد ولده

ماذا عليه وقد رأى ولداً

أعور يجم العوار ـ لو وأده !

سأسمع الناس ذمه أبداً

ما سمع الله حمد من حمده »

وفى هذه القصيدة أيضا من هجر القول ما لا يسمح بذكره المقام .

وقال من قصيدة أخرى :

« لا يأمنن السفيه بادرتى

فإننى عارض لمن عرضا

عندى له السوط إن تلوّم فى السير

ر وعندى اللجام إن ركضا »

وفيها يقول :

« أضحى مغيظاً على أن غضب اللـ
ـه عليـه ونلت منه رضا
قولا له : ينطح الجدار إذا أعـ
ـيا ، وصم الصفا إذا امتعضا
ولا يحمل ضعيف منّتـه
حربى ، فما مثله بها نهضا »

إلى أن يقول :

«أقسمت بالله لا غفرت لهُ إن واحد من عروقه نبضا»

* * *

فإذا ذكرنا — إلى ذلك الهجاء المقذع ـ أن فى التنويه بابن الرومى إساءة إلى جمهرة من أعيان الدولة وكبار رجالها الذين هجاهم أو هجا آباءهم ـ كما أسلفنا القول ـ عرفنا السر فى هذا الإغفال .

# ٢

## ابن الرومى(١)

ليس أبهج للنفس وأدعى إلى غبطتها من تلك الجهود التى يبذلها كثير من أدبائنا فى هذه الأيام لإزاحة الستور الكثيفة التى تحجب عن جمهرة المتأدبين أعلامنا الممتازين وقادة الفكر العربى وأساطين الأدب المبرزين ، فان كل فضل يذيعهُ هؤلاء الأدباء ويسجلونهُ لهؤلاء الأعلام إنما هو حجة ناهضة يقيمونها مشكورين على فضل الأدب العربى الزاخر بأسمى إحساسات الحياة ومثلها الرائعة ، وفيه أبلغ رد على دعاوى المفتونين بالأدب الغربي ـ والأدب الغربي وحده ـ الساخطين على الأدب العربى ـ بغير حق ـ لأنهم لم يفهموه أو ـ على الأصح ـ لم يعنوا بقراءته ودرسه ، والإنسان دائماً عدو ما يجهل .

***

لهذا امتلأت نفوسنا غبطةً وانشراحاً حين رأينا

---

(١) نشر بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٣١ بمناسبة صدور كتاب عن « ابن الرومى » للأديب النشيط عباس افندى محمود العقاد .

ما بذله الأديب النشيط عباس افندى محمود العقاد من جهود مشكورة فى إذاعة فضل ابن الرومى والتنويه بشاعريته الخصبة بأسلوبه الذى يجمع إلى اللباقة جدة البحث .

وقد تكاتفت فئة من أعلام أدبائنا المعاصرين على إذاعة فضل ابن الرومى نذكر منهم الأساتذة الأجلاء ابراهيم عبد القادر المازني وحسن السندوبى والمرحومان محمد السباعى والشيخ شريف وغيرهم .

ثم جاء هذا الاديب النشيط فأضاف فى كتابه الجديد إلي تلك الجهود المثمرة جهداً مشكوراً جديراً بالإشادة والتنويه.

وقد قسم كتابه إلي أقسام ستة ثم أتبعها بطائفة اختارها من شعر ابن الرومى تقع فى ستين صفحة .

والقارئ المنصف جدير ان يغتبط بهذا الجهد الذى بذله هذا الأديب النشيط ويسجل ما وفق إليه فى كتابه من طرافة المواضيع التى تناولها بلباقته المعروفة .

وقد افتتح الكتاب بتمهيد قال فى أوله :

« هذه ترجمة وليست بترجمة لأن الترجمة يغلب أن

تكون قصة حياة وأما هذه فأحر بها أن تسمى صورة حياة، ولأن تكون ترجمة ابن الرومى صورةً خير من أن تكون قصة، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال، ولكننا إذا نظرنا فى ديوانه وجدناه مرآة صادقة، ووجدنا فى المرآة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء. وتلك مزية تستحق من أجلها أن يكتب فيها كتاب »

***

وله رأيه فى أن صورة الحياة خير من قصة الحياة، لأن الواحدة مكملة للأخرى ولا بد من الاثنتين لفهم الشاعر فهماً تاماً. ولكننا نأخذ عليه شيئاً كثيراً من التساهل فى التعبير يجب أن يتنزه عنه الناقد الحديث الذى يزن الألفاظ ويتوخى الدقة. ولسنا نرضى له كذلك أن يقول: « إن الصورة التى يجدها فى ديوان الرومى لا نظير لها فيما يعلم من دواوين الشعراء » فإن فى لزوميات المعرى — وهى فيما يعلمه من دواوين الشعراء — صورة ناطقة ومرآة صادقة،

هي -على الأقل- أدق وأصدق من تلك الصورة التي تراها في ديوان ابن الرومي ، وإنما نجتزئ بالتمثيل بالمعري - وكم له من نظراء - لأنه ممن يقرنا عليه الأديب صاحب الكتاب

* * *

ولسنا نرضى له كذلك أن يقول في مكان آخر من كتابه : «إن في ابن الرومي خاصة فريدة ليست في غيره من الشعراء وهي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره» فإن المعري لا يزال ماثلا أمامنا وهو أبلغ رد عليه .

وما ضر هذا الأديب لو توخى الدقة والإنصاف وأراح نفسه وأرضى الحقيقة فقال : « وهذه مزية قلما يشركه فيها أحد من الشعراء ؟ »

إذن لوقاه الحذر العلمي عثرات التعميم والإجمال .

ومما نأخذه على حضرته قوله : « والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف بعد. »

والحقيقة هي أن ابن الرومي الشاعر معروف

لأَن ديوانهُ وما كتب عنهُ من دراسات قيمة ماثلان بين أيدينا ، أما « ابن الرومى » الرجل فهو الذى لم يعرف بعد . وقد اعترف الأديب بأن كل ما عثر عليه لا يجتزىء فى ترجمة وافية أو ما يقرب من ترجمة وافية[1]

على أنه ـ حين تصدَّى لتعريفنا بابن الرومى الشاعر ـ لجأ إلى ضرب من المغالاة والإغراق لا نرضى لناقد حديث أن يتورط فيه الآن .

فإذا جاز لبعض القدماء أن يقولوا : « هذا أمدح بيت وهذا أغزل بيت وهذا أشعر شاعر . » ـ وقد انتقد عليهم ذلك الشطط الأديب الجرجانى صاحب الوساطة ـ لم يجز للناقد الحديث أن يتورط فى نوع من المغالاة هو ـ فى نظرنا ـ شر من هذا فيقول :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه ، والشاعر فى جيده ورديئه ، والشاعر فيما يحتفل به وما يلقيه على

(١) وقد يئس الاستاذ المازنى قبله من ذلك فقال : « وما نطمع أن نؤدى للقارىء ترجمة لهذا الشاعر محكمة الحدود ، فانى من ذلك لعلى يأس كبير » ص ٣٢ من «حصاد الهشيم.»

عواهنه » . أو يقول : « فما تحرك فى حياته حركة إلاَّ كان لعبقريته منها أو فى نصيب » .

وما هذا كلام ناقد يزن الامور بميزان المنطق والعقل ؛ ولكنه قول شاعر تسبح به عاطفته وإعجابه فى عالمى الوهم والخيال .

***

وإذا كان لا بد من الدفاع عن ردىء ابن الرومى وسخفه فليسلك طريق الجرجانى ، – فى وساطته – ، حين قال مدافعا عن المتنبى :

« ولو تأملت شعر أبى نواس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت منفيه ومختاره ، لعظمت من قدر صاحبنا ( المتنبي ) ما صغرت ولأكبرت من شأنه ما استحقرت » إلى أن قال : « فهل طمست معايبه محاسنه ؟ وهل نقص رديه من قدر جيده[1] ؟ »

هكذا يقال ، وبمثل هذا الميزان الصحيح توزن الأحكام

(١) انظر كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه « ص ٥١ »

ومن الأحكام التي يتورط فيها نقادنا الجدد قول هذا الأديب :
« إن عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية لولا الإفراط والإنهماك ، أو أنها عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير » فإذا بحثت عن أدلته لم تجد إلاَّ فروضاً لا سبيل إلى تحقيقها . ونحب أن نقول : إن أمثال هذه النزعات لا تقوى على التمحيص ولا تقر لحظة واحدة فى ميزان البحث الصحيح ، ولا نرضى للنقاد الجدد أن يتورطوا فى مثل هذه المآزق وأن تنفلت منهم المعايير الى هذا الحد .

وقد طالما شكونا من الجامدين اللعب بالألفاظ ، فأصبحنا الآن نشكو من المجددين اللعب بالمعانى والإسراف فى الفروض .

وقد ذكر هذا الأديب أن أبا الفرج أهمل ابن الرومى حنقاً عليه ولم يبين لنا أسباب هذا الحنق[1] .

ثم إنه سلك في مناقشة « ابن خلكان » مسلكاً لا نرضاه

---

(١) كتب الاديب عباس افندى محمود العقاد فصلا فى مجلة الجديد بالعدد السادس عشر من السنة الثانية « بتاريخ ١٣ – ٥ – ٢٩ » أقر فيه الاسباب التى ذكرناها فى مقالنا السابق

له ، وتأول فى كلامه وتعسف حتى أخرجه عن الجادّة وحمّل ألفاظه ما لا قبل لها باحتماله . فقد شاء أن يرى فى تعريف «ابن خلكان» الدقيق نقصاً كبيراً « هو المهم وهو الأجدر بالتنويه ، وهو المزية الكبرى في الشاعر » . فإن شئت أن تتعرف ما هي تلك المزية الكبرى التي أغفلها « ابن خلكان» قال لك : « هى الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءاً من الحياة » . ومتى أغفل «ابن خلكان» ذكر هذا التعبير الجديد — الطبيعة الفنية — « Artistic Naturè » فقد ترك أهم مميزات ابن الرومى .

---

ثم قال : « ولعل أبا الفرج سكت لأسباب اخرى سنلم بها فى مكانها من تاريخ الشاعر . وبعض هذه الاسباب ان صاحب الاغانى لم يكن مستطيعا ان يقدر ابن الرومى حق قدره لأنه كان امويا وكان ابن الرومى شديد الكراهية للامويين »

فلما سألنا الاديب عن تلك الاسباب الاخرى عجز عن الجواب ، وقال إنه سيذكرها فيما بعد .

ولما بينا له ضعف استدلاله وخطأه فى الاستنتاج ، وأظهرنا له أن ابن الرومى كان يميل الى التشيع وأن أبا الفرج يشاركه فى هذا الميل ، وأنهما بذلك يكرهان بنى أمية ، وأن هذا السبب كان جديرا أن يذكر فى الاسباب التى تخفف عليه نقمة أبى الفرج وتشفع له عنده . اضطر الأديب ان يحذف هذا الفصل كله من الكتاب — من غير ان يشير اليه بكلمة واحدة — وهذا مثال عجيب لم نكن نرضاه لأديب غايته البحث عن الحقيقة وتوخى الانصاف .

***

ولسنا ندرى كيف يمكن أن يكون الغوص على المعاني النادرة وإبرازها ـ فى أحسن صورها ـ غير مصحوب « بطبيعة فنية وإحساس بالغ وذخيرة نفسية . »

وكيف تكون المعاني النادرة « أصدافاً كأصداف ابن نباتة وصفى الدين الحلى وأضرابهما ؟ »

وكيف يكون ذلك « لعباً فارغاً كلعب الحواة والمشعوذين ؟ »

وكيف تكون المعانى نادرة وهى كما يقول : «أصداف حقيرة تافهة ؟ »

أيجدر بنا أن نفهم أن هذا التعبير الواضح يمكن أن يحتمل مثل هذا التأويل ؟ وهل نفهم أن المعانى النادرة يمكن أن يكون معناها النادرة فى السخف ؟ وهل نفهم من قولهم: « رجل نادر » أنه رجل نادر فى الغباء مثلا ؟

***

إن للألفاظ مدلولات ومعانى لا سبيل إلى تجاوزها

مهما بذلنا من جهود وتأويلات . ويجب أن نفهم بالبداهة مبلغ الفرق بين الغوص على المعانى النادرة والغوص على المناسبات الفارغة والولوع بالقشور الحقيرة .

وكيف يبرز الشاعر تلك المعانى النادرة فى أحسن صورها من غير أن يسعده طبعه ، أو « طبيعته الفنية » «Artistic Nature» إن كان لا بدَّ من هذا التعبير الفرنجى ؟

وليت شعرى كيف يتسنى للشاعر أن يؤدى تلك المعانى الرائعة « من غير أن يكون عنده ما يعبِّر عنه » كما حاول أن يقنعنا ذلك الأديب ؟

***

إن الطبيعة الفنية هى ما ألفنا التعبير عنه بكلمة «الشاعرية» ـ فى الشاعر ـ وقد كان نقاد العرب يوجزون ـ مع الإحاطة الشاملة ـ فيقولون : « الشاعر » ويجتزئون بهذا اللفظ عن كل ما يستلزمه ـ من طبيعة فنية وما إلى هذه التعابير ـ فإذا قصر فى شىء منها قالوا : « إنه ناظم أو متكلف » ونبهوا إلى ما قصر فيه .

فأنت ترى أن « ابن خلكان » لم يترك شيئاً جديراً بالتنويه ولم يدع إلا الفضول ، فهو يرى أن الشاعرية أو « الطبيعة الفنية » صفة لازمة للشعراء ، وليس يميز « ابن الرومى » عن أضرابه غير تلك المزايا التي ذكرها « ابن خلكان » في وصف ابن الرومى[1] فهى وحدها التى تميزه عن البحترى وأبي نواس ودعبل ومهيار وغيرهم ، أما الطبيعة الفنية فهى تراث شائع بين هؤلاء جميعاً .

***

وقد ذكر « ابن سعيد المغربى » الذى استشهد الأديب بقوله : قولهم إن «ابن الرومى» كان أحق الناس باسم شاعر ، أى أنه أقواهم « طبيعة فنية » على حد التعبير الجديد . ثم علل «ابن سعيد» جدارته بهذه التسمية بكثرة اختراعه وحسن توليده ، وهو بهذا يذهب مذهب « ابن خلكان» أيضاً .

***

(١) وإلى القارىء نص عبارة ابن خلكان :

« يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها فى أحسن صورة ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية . »

ثم ما قيمة الطبع وحده ـ أو الطبيعة الفنية وحدها ـ إن لم تصحبها وسائل التعبير والافتنان فى الأداء ؟

لقد كان « الجرجانى » فى وساطته أكثر توخياً للدقة وتحرياً للإصابة حين عرض لهذا المعنى فقال :

« وتجد الشاعر أشعر من الشاعر ، والخطيب أبلغ من الخطيب ، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة ، فأنت ترى أن الطبع محتاج الى متممات لا تقل عنه خطراً [1] »

ثم قال الجرجانى فى موضع آخر من الكتاب :

« وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ، ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع بل ، المهذب الذى

---

(١) انظر « ص ٢٠ » من كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وقد قال الجرجانى فى ص « ٨٦ » من الوساطة :

« وليس من شرائط النصفة أن تنعى على الشاعر بيتا شذ ، وكلمه ندرت ، وقصيدة لم يُسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته »

(٢) انظر « ص ٢٨ » من كتاب الوساطة

***

صقله الأدب وشحذته الرواية وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد وتصور أمثلة الحسن والقبيح . »

وثمة ترى أن نقاد العرب لم يتركوا من هذا المعنى شيئاً إلا جلوه فى أحسن معرض ووفوه حقه من العناية والاهتمام ، وإن كانوا لم يعبروا عنه بالتعبير الفرنجى الجديد الذى فتن به هذا الأديب ، فنقله إلى العربية وهو يحسب أنه قد عثر على اكتشاف ثمين ، فراح يباهى به فى كتابه بعد أن ظن أنه ظفر بعالم يوفق إليه أحد .

***

وبعد فهذه نظرة تقدير وإنصاف لكتاب هذا الأديب ، وفيه ـ عدا ما ذكرنا ـ مواضع للإصابة جديرة بالتنويه بها ، ومواطن كثيرة للنقد جديرة بالتنبيه إليها ، فلنتركها الآن مجتزئين بهذه اللمحات .

على أننا جديرون أن ننبه إلى عيب رئيسى قد انتظم كتابه فشوهه أشنع تشويه ، فقد كان أسلوبه مثالا عجيباً

للتعقيد والتهاون فى التعبير وإلقاء الكلام على غواهنه، والنزول بأسلوب النقد الأدبى الدقيق إلى الأسلوب الصحفى السريع الذى لا يعنى فيه كاتبه بتخير الألفاظ الدقيقة ووزن الأحكام — بروية وأناة — بميزان المنطق الصحيح .

انتهى الكتاب

# كتب للمؤلف

رسالة الغفران أجزاء ثلاثة فى سفرين

نظرات فى تاريخ الأدب الاندلسى : مجموعة محاضرات القاها المؤلف فى الجامعة المصرية

قصص من بوكاتشو وقصص أخرى

مختارات كامل كيلانى مقالات شتى فى الادب والاجتماع

ديوان ابن الرومى أجزاء ثلاثة فى مجلد واحد

مختار القصص أسلوب طريف فى القصص

مصارع الخلفاء
مصارع الأعيان } مشاهد رائعة نقلها المؤلف عن التاريخ

صور جديدة من الأدب العربى مجموعة مقالات نشرت تباعاً بمجلة المقتطف

# مكتبة الاطفال

بقلم
كامل كيلانى

## حكايات للأطفال

(١) الدجاجة الصغيرة الحمراء ـ وحكايات أخرى
(٢) أم الشعر الذهبي ـ وحكايات أخرى

## قصص للأطفال

(١) السندباد البحرى . (٢) علاء الدين
(٣) روبنسن كروزو (٤) تاجر بغداد

## قصص فكاهية للاطفال

(١) غمارة (٢) الأرنب الذكى (٣) عفاريت اللصوص
(٤) نعمان (٥) العَرَنْدَس (٦) أبو الحسن

## قصص جديدة للأطفال

(١) بابا عبدالله والدرويش (٢) أبو صير وأبو قير

## قصص شكسبير للأطفال



### أشهر القصص للأطفال



### قصص علمية للأطفال



### قصص عثيلية للأطفال

# نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى

## مجموعة محاضرات ألقاها فى الجامعة المصرية كامل كيلاني

تناول فيها الكلام على أهم النقط الرئيسية التى أثرت فى الأدب الأندلسى وأتى بنبذة من تاريخ الاندلس ونشأة ملوكها وأثرهم فى البلاغة وخطر الدين عندهم وشغفهم بالموسيقى وأثر ذلك فى انشاء الموشحات وتأثرهم بالمشارقة وموازنة بين ابن هانيء والمتنبى الخ. مع مناقشة طائفة من آراء المستشرقين: نيكلسون ودوزى ومقارنتها بآراء أشهر مؤرخي العرب. والكتاب مطبوع على ورق صقيل وعدد صفحاته أربعمائة من القطع الكبير وثمنه ١٠ قروش

---

# ديوان ابن الرومى

## اختيار وتصنيف الاستاذ كامل كيلانى

ان الأدباء وهواة الشعر يشعرون بذلك الفراغ الذى تركه عدم نشر هذا الديوان الفذ، ولقد كان من يود منهم

أن يقرأ أو يدرس شيئاً من شعر ذلك الشاعر الفيلسوف يقنع بما نقل عنه فى كتب الأدب الأخرى وهو قليل لا يشفى غلة ، أو يتردد على دار الكتب يتجشم المشقة فى نقل ما يود أن يقرأ أو يختار من النسخة المحفوظة ، لذلك كان طبع ديوان ابن الرومى ونشره يعتبر عملا نافعاً يقابله الأدباء بالسرور والثناء على تجشم المشقة فى سبيل تحقيقه .

يقع فى نحو خمسمائة صفحة فى جلد قماش وثمنه عشرون قرشاً .

---

## رســـالة الغفران

### للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى

إيجاز وشرح كامل كيلانى

الطبعة الثانية

آية الأدب العربى . لا أستثنى منه شيئاً . لا أستثنى منه شعراً ولا نثراً ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ، لا أستثنى منه شيئاً ما .

هى آية الأدب العربي كما أن صاحبها هو آية كتاب العرب.. هي آية التفكير العربى هى آية الخيال العربى . هى آية السحر العربية . هى آية الحرية العربية . هى آية العرب فى هذا كله ، لا أغلوا فى ذلك ولا أسرف بل اعترف بأنى دون ما أريد . طه حسين

وهى أجزاء ثلاثة يضمها سفر واحد . فى الجزء الاول منهـا « رواية الغفران » وفى الجزء الثـانى « الرد على ابن القارح » وفى الجزء الثالث « رسـالة ابن القارح ورسـالة الملائـكة » هذا إلى دراسات فئة من أسـاطين الأدب مستشرقين وغير مستشرقين وآرائهم فى الرسالة

وقد افتتح هذا السفر النفيس بثلاث مقدمات تحليليه شائقة تبين أغراض الرسالة ومراميها الدقيقة كتبها الاساتذة « الدكتور طه حسين » و « فريد وجدى » و « شـارح الكتاب » والكتاب مطبوع طبعة متقنة على ورق جيد وعدد صفحاته خمسمائة صفحة وثمنه ١٥ قرشاً